16851

وهران
المكتبة الجامعية

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة وهران
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
قسم العلوم الإسلامية

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية
تخصص: الكتاب والسنة

لا يستعار

بعنوان

مقامات الخطاب في القرآن الكريم الترغيب والترهيب نموذجا

من إعداد الطالبة:
بوخراص كريمة

إشراف الأستاذ:
د. لخضر لخضاري

وهران
المكتبة الجامعية

1427هـ-1428هـ
2007-2006

الإهـــداء

إلى من أدعو الله أن يحفظهما كما ربياني صغيرة، وتعبا لأجلي وأنا كبيرة
أبي الفاضل، وأمي الغالية
إلى شقيقتي ورفيقة دربي حليمة، وإلى زوجها

إلى زينتي حياتي وبهجتها، بنيّتي فاطمة، وأختي حنان

إلى أخوتي الأعزاء، عبد القادر وزوجه أمينة، وعبد الرحمن، و أحمد.

إلى العصفورتين الغاليتين، نسرين وشيماء

إلى أختي التي لم تلدها أمي فتيحة، وإلى كل صديقاتي ورفيقاتي

أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع

الشــكــر

أشكر الله الذي فتح في وجهي باب العلم بعد غلقه، وأنار لي الدرب بعد ظلمته، وأرجو أن يكون هذا العمل المتواضع خالصا لوجهه الكريم.

ثمّ أشكر الأستاذ الفاضل الدكتور لخضاري لخضر الذي تفضل علي بمتابعة هذا البحث منذ أن كان فكرة إلى أن صار على ما هو عليه الآن، وأسأل الله أن يجازيه عني وعن جميع الطلبة خير الجزاء.

كما أشكر جميع أساتذة هذا المعهد، الذين لم يبخلوا علي بالتوجيهات والنصائح.

ولا أنسى أن أشكر أيضا زملائي الطلبة، وأصحاب المكتبات على ما يقدمونه من عون لكل من أراد البحث والتعلم.

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن بصائر للناس، وهدى ورحمة للعالمين، يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بعث فينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آيات الله، ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة وإن كنا من قبل لفي ضلال مبين.

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، أرسله ربه شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، والسائرين على هديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنه من المعلوم أن الله تعالى قد خلق الجن والإنس لقصد العبادة، وذلك مصداقا لقوله: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (الذاريات56)، ولما كان تحقيق هذا القصد لا يمكن أن يتمّ على الوجه الأكمل إلا بمعرفة المعبود، إذ المجهول لا يُتَوجَّهُ إليه ولا يقصد بعبادة ولا بغيرها إلا إذا عرف، ومن جملة المعرفة به أنه تعالى أمر ونهى وطالب العباد بقيامهم بحقه، ولأن هذا القيام لا يتأتى دون معرفة كيفية أداء المأمورات، والسبل الواجب إتباعها لاجتناب المنهيات،جاء خطابه سبحانه وتعالى متنوعا تنوع هذه الأهداف والغايات، فتارة يأتي بالمقدمات العقلية والأمر بالتدبر وإعمال الفكر حتى يتسنى للمُخَاطَبِ معرفة خالقه من خلال التدبر في مخلوقاته، ويسوق أحيانا أسلوب التنبيه والتذكير متى لمس غفلة أو إعراضا من عباده، كما يأتي بأساليب أخرى يتوافق كل منها والمقام المراد بيانه، مراعيا في ذلك أحوال المخاطبين وطباعهم وما يحف بالخطاب من ملابسات وظروف.

وذلك لأن النص القرآني ليس خطابا سماويا مجردا عن الواقع الذي أنزل فيه، وإنما هو كلام من الله تعالى لعباده قصد من وراءه ـــ ابتداء ـــ إصلاح المجتمع الذي نزلت فيه الرسالة بدءا من إصلاح معتقداتهم إلى إصلاح أحوالهم أفرادا وجماعات، وتحقيقا لهذا القصد، خاطبهم الشارع الحكيم بلغة يعرفونها وفق ما اعتادوا من ألفاظ ومعاني وأساليب.

ولما كان غرض أي باحث في النصوص الشرعية فهم معانيها والكشف عن مقاصد الشارع الحكيم منها، كان من الضروري استحضار مقام الخطاب وبيان ما أحاط به من ظروف وملابسات.

ولأن مقامات الخطاب في القرآن الكريم متنوعة ومتعددة تعدد المواضيع التي عالجها، والمقاصد التي قصدها، اخترت مقام "الترغيب والترهيب" كنموذج لهذه الدراسة، وهو مقام يفيض به بحر الكتاب العزيز، إذ لا يكاد المتطلع في آياته أن يجد موضوعا من المواضيع التي تولى القرآن الكريم بيانها، إلا واقترن بآيات الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، سواء كان ذلك في مقام تثبيت العقائد، أو فرض العبادات، أو في مقام بيان مسائل المعاملات، وترسيخ ا|لأخلاق والعادات، وذلك لما يكتسيه هذا المنهج الرباني من أهمية تتمثل في أنه خطاب من الله تعالى لفطرة الإنسان وغريزته، فالإنسان جبل على حب الخيرات فرغب بكل ما هو خير، كما جبل على نبذ الشرور والمفاسد، فرهب بما يخافه وينبذه.

وقد اخترت البحث في هذا الموضوع للإجابة على جملة من الإشكالات منها:

إشكالية البحث:

من بين الإشكالات التي يمكن أن يثيرها هذا الموضوع، السؤال عن المقصود بمقامات الخطاب، وما هي السبل التي من شأنها أن تساعد الباحث في الكشف عن المقام؟ وما هو الدور الذي يمكن أن يمثله استحضار المقام في فهم الخطاب القرآني؟.

ويضاف إلى هذه الإشكالات أسئلة أخرى من شأنها أن تزيد الموضوع توضيحا وبيانا، منها: السؤال عن أنواع مقامات الخطاب في القرآن الكريم، وهل يمكن لهذه الأنواع أن تدرس بنفس الطريقة التي تناول بها العلماء المقام في الأحاديث النبوية الشريفة، وما هي النتائج التي يمكن أن تترتب عن هذا التقسيم؟.

أهمية الموضوع والأهداف المرجوة من هذا البحث:

يمكن القول أن أهمية هذا الموضوع تكمن في أن مقام الخطاب وسيلة فعالة من شأنها أن تساعد الباحث في تفسير النصوص الشرعية وبيان مقاصد الشارع الحكيم منها.لذا حاولت من خلال هذا البحث:

ـــ بيان الوسائل والطرق المساعدة على الكشف عن مقامات الخطاب، سواء تعلق ذلك بالعوامل الداخلية والمتمثلة في الخطاب ذاته، أو بعوامل خارجة عنه تتمثل في الظروف والملابسات التي أحاطت بالخطاب وقت نزوله.

ـــ بيان الأثر الذي يمكن أن يشكله استحضار المقام في فهم النصوص والكشف عن مراد الشارع.

ـــ البحث العلاقة التي قد تربط بين مقامات الخطاب في القرآن الكريم، ومقامات تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم، وعن إمكانية التعامل مع الخطابات القرآنية بنفس المنهج الذي اعتمده العلماء في تقسيم التصرفات النبوية.

ـــ بيان الأهمية التي يمكن أن يشكلها مقام الترغيب والترهيب، سواء على مستوى التأثير على نفوس المُخَاطَبِين، أوعلى مستوى بيان الأحكام.

ـــ جمع ما ذكر حول الموضوع في بحث مستقل يساعد من أراد البحث في هذا الموضوع ويخفف عنه الصعوبات التي يمكنها أن تواجه.

أهم الصعوبات:

من الصعوبات التي واجهتني في هذا البحث، قلة الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، فبالرغم من اطلاعي على بعض البحوث التي أشارت إلى أهمية هذا العنصر الاستدلالي، إلا أنها في مجملها قد اقتصرت على ما يمكن أن يشكله استحضار مقام الخطاب من أهمية في فهم النصوص وبيان مقاصدها، دون بيان الطريقة التي من شأنها أن تكشف عن المقام ولا الكيفية التي يتم بها توظيفه، مما صعب علي إيجاد تقسيم مناسب للبحث، ومعرفة أهم العناصر التي يمكن أن يشملها، كما أن هذه الدراسات ـــ في الغالب ـــ كتب لغوية تناولت الموضوع من جانب لغوي، هذا فيما يخص الدراسات الحديثة، أما المقام في مصنفات السابقين، ورغم أنهم قد استحضروه عند تفسيرهم للعديد من النصوص، ووظفوه في التأصيل لجملة من القواعد، إلا أن البحث في هذه المصنفات صعب جدا، لكون الحديث عن المقام فيها ورد في شكل جزئيات صغيرة مبثوثة ضمن مسائل أخرى، ولم يتناولوه كقاعدة مستقلة أو عنصر منفصل عن باقي القواعد التي عالجوها، سواء كان ذلك في الدراسات الأصولية أو في كتب علوم القرآن والتفسير.

ومع ذلك فقد استعنت بجملة من المصادر والمراجع التي شكلت الموجه الأساسي لهذا البحث، من أهمها: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، حيث بين ابن عاشور في هذا التفسير أهم المقامات التي حواها القرآن الكريم، وتحدث في العديد من المواضع عن أهمية المقام وكيفية توظيفه في تفسير النصوص والكشف عن الدلالة، وكتاب الموافقات للشاطبي، والذي أشار فيه، إلى طرق الكشف عن المقام، والأهمية التي يمكن أن يشكلها استحضار العناصر الغير لغوية في فهم الخطاب، لا بحسب ما يبينه ظاهر النص، وإنما بحسب مقصود الشارع، كما تحدث بوجه خاص عن مقام الترغيب والترهيب، وبين منهج القرآن الكريم في عرضه، ومقاصد الشارع الحكيم من توظيفه، ويمكن أن يضاف إلى ذلك نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور لإسماعيل الحسيني، والتي تكلم فيها عن دور المقام في هذه النظرية، وعن الكيفية التي وظف بها ابن عاشور المقام في فهم النصوص الشرعية، بالإضافة إلى المنهج الأصولي في فقه الخطاب لإدريس حمادي، والخطاب الشرعي وطرق استثماره لنفس المؤلف، وقد تعرض صاحب هذين المرجعين إلى أهمية استحضار العناصر الغير لغوية في فقه الخطاب، وأهمية مراعاة أحوال المتكلم وأحوال السامع، وعن طريقة تناول الأصوليين لهذه القواعد.

منهجية البحث: من الأمور التي حاولت الالتزام بها:

ـــ عدم التوسع في التعاريف إلا بقدر ما يبين الموضوع المراد تعريفه، وقد اقتصرت على تعريف العناصر المتعلقة بشكل مباشر بالبحث.

ـــ عدم التوسع في ذكر الاختلافات الفقهية والاقتصار على بيان دور المقام في هذه الاختلافات وكيفية توظيف العلماء لهذا العنصر.

ـــ الاعتماد على المصادر المختلفة وعدم الاقتصار على نوع واحد من العلوم، للإحاطة بالموضوع من مختلف جوانبه،(التفسير، أصول الفقه، الفقه،السياسة الشرعية، والحديث...)

ـــ عدم التعرض لأهمية مقامات الخطاب من الناحية اللغوية إلا ما ذكر في المدخل

ـــ الاكتفاء في تخريج الأحاديث على ما ورد في الصحيحين أو في أحدهما(إلا ما رواه البخاري أو مسلم عن مالك)، وفي حالة عدم وجوده في الصحيحين، أخرجه من بعض كتب السنن الأخرى، وأذكر بعض أقوال العلماء فيه.

ـــ تأخير ترجمة الأعلام إلى نهاية البحث حتى لا أثقل الهوامش، حيث أذكر ترجمة مختصرة لكل من تمكنت من ترجمته (لأنه قد تعذر علي الترجمة لأصحاب الكتب الحديثة).

ـــ الاقتصار في توثيق المصادر والمراجع على عنوان المصنف، واسم المؤلف، مع ذكر الجزء إن وجد ورقم الصفحة، وأترك التوثيق الكامل للمصنف في قائمة المصادر والمراجع.

أما بالنسبة لخطة البحث:

فقد قسمت هذا الموضوع إلى مدخل وثلاثة فصول، تناولت في المدخل أهم مظاهر الاهتمام بالمقام في دراسات السابقين، حاولت من خلال هذا التمهيد، بيان الطريقة التي عالج بها العلماء هذا العنصر، فذكرت من ذلك بعض ما تعرض له علماء اللغة، وعلماء الأصول، وبعض ما ورد في الكتب الفقهية، والشروح الحديثية.

وتطرقت في الفصل الأول إلى حقيقة المقام، والتي حاولت أن أبينها من خلال ذكر تعريف للمقام وأهم عناصره في المبحث الأول، وذكر طرق الكشف عن مقامات الخطاب في المبحث الثاني، وتناولت في المبحث الثالث، دور المقام في فهم النصوص وتفسيرها.

أما الفصل الثاني فقد حوى أنواع المقامات في القرآن الكريم، تعرضت في المبحث الأول إلى مقام البيان والتبليغ، وتناول المبحث الثاني، مقام الإمامة، وفي المبحث الثالث مقام القضاء.

وفي الفصل الأخير ذكرت الكيفية التي عالج بها القرآن الكريم مقام الترغيب والترهيب، من خلال بيان طريقة عرضه، في المبحث الأول، وذكر أهم الوسائل والأساليب المستخدمة لهذا الغرض في المبحث الثاني، أما المبحث الثالث فتعرضت فيه لأنواع مقام الترغيب والترهيب فذكرت جملة من الأقسام بحسب اعتبارات مختلفة.

و أخيرا خاتمة البحث وقد اشتملت على أهم النتائج المتوصل إليها.

وفي الأخير تبقى الإشارة إلى أن هذا العمل المتواضع قد تعتريه بعض الأخطاء والنقائص رغم أني قد حاولت جهدي أن أجتنبها، فأرجوا من الله سبحانه وتعالى أن يتجاوز عن أخطائي ويغفر لي.

11 ذي الحجة 31/1427 ديسمبر2006

المدخل:

أهمية المقام في دراسات السابقين:

لقد اهتدى العلماء في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية والعلوم الشرعية إلى ضرورة مراعاة ما يحف بالكلام من ملابسات، كأحوال المتكلم، وأحوال السامع، والأمور التي حدثت أثناء عملية التخاطب، وكل ما يقوم بين هذه العناصر من روابط تساعد على تحديد الدلالة الحقيقية للنصوص والكشف عن المعنى، والأمثلة كثيرة على أصالة هذا المبدأ في الدراسات الإسلامية، فقد تحدث علماء القرآن عن أسباب النزول وأفردوها بالتأليف، وتكلم علماء الحديث عن أسباب ورود الحديث، كما تحدث علماء الأدب عن أسباب وظروف الإنشاد، وما كان ذلك إلا لأنهم أدركوا أهمية هذه العوامل في فهم الخطاب وبيان مقاصده، ورغم أن العلماء قد عبروا عن فكرة المقام بمصطلحات مختلفة، كمقتضى الحال، وسياق الحال، والحال، والسياق، والموقف، وقرائن الأحوال، وما إلى ذلك من المصطلحات التي استخدموها في هذا المقام، إلا أن المتمعن فيها يلاحظ أن معناها لا يخرج عن كونها مجموعة العناصر المحيطة بالخطاب والمؤثرة فيه والتي تمكن مستحضرها من تحديد المعنى الصحيح للنص المراد تفسيره، ويمكن بيان بعض مظاهر اهتمام العلماء بتوظيف المقام في دراساتهم على النحو التالي:

أولا) ــ مظاهر الاهتمام بالمقام في الدراسات اللغوية:

يمكن القول أن أبرز مظهر من مظاهر اهتمام علماء اللغة بفكرة المقام يتجلى من خلال اشتراطهم لمراعاته عند إيراد الكلام لذا قالوا: "لكل مقام مقال"[1] بل وعدوه حدا من حدود البلاغة، فالبلاغة عندهم:" موافقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"[2] وذلك بأن يتميز التعبير بخصائص في الصياغة وأوضاع في التراكيب، بحيث تدل هذه الخصائص والتراكيب على معاني يكون بها الكلام وافيا ومطابقا لما يتطلبه الموقف الداعي لذلك"[3] فإذا أردت أن تمدح

---

(1) ــ الصناعتين، الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ص33

(2) ــ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني،(ج1/ ص80)

(3) ــ دلالات التراكيب، دراسة تحليلية لعلم المعاني، محمد حسن أبو موسى، ص/42

شخصا فأطنبت في حديثك عن صفاته وخصاله، جاء كلامك بليغا و لم يكن بعيدا عن البلاغة بسبب الإطناب بل العكس، لأن مقام المدح يقتضي ذلك. [4]

وحين يكون المقام داعيا إلى التنويه برجل تتحدث عنه حين تنفعل نفسك بمآثره وأخلاقه، فتقول" هذا الرجل" وتذكره معرفا بأداة التعريف التي تكسبه في سياق العناية به وصف الرجولة الكاملة، وكأنك توهم بأن الرجولة بكافة أوصافها تتحقق فيه، فحينئذ نقول أن الكلام قد جاء مطابقا لما اقتضاه المقام، إذ المقام يتطلب التنويه والإشادة بالرجل،[5] فالأساليب تختلف باختلاف الأحوال، إذ مقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام الهزل يبان مقام الجد، ومقام الترغيب يختلف عن مقام الترهيب،[6] وكل موقف من هذه المواقف يقتضي أسلوبا يخصه، من إطناب، أو إيجاز، أو حذف، أو إثبات، أو تصريح، أو إشارة أو كناية، وما إلى ذلك من الأساليب الواجب استخدامها وفق ما يقتضيه الحال،[7] يقول الجاحظ عند حديثه عن ضرورة مناسبة الكلام لمقتضى المقام:" ينبغي للمتكلم أن يعرف أحوال المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات،.."[8] فإذا أهمل الملقي هذه العوامل عدّ كلامه معيبا، لذا اعتبر القزويني أن أساس الحكم على حسن الكلام وقبوله، مطابقته لمقتضى الحال، فإذا لم يتوافق الخطاب والمقام الذي ذكر فيه كان ذلك سببا في رده وانحطاطه.[9]

---

(4) ــ علم البيان بين النظريات والأصول، دريزة سقال، ص36

(5) ــ دلالات التراكيب، محمد حسن أبو موسى، ص42

(6) ــ وقائع لغوية وأنظار نحوية، سالم علوي، ص168

(7) ــ أبجد العلوم، صديق ابن حسن القنوجي،ص/ 158

(8) ــ البيان والتبيين، الجاحظ، (ج1/ ص129)

(9) ــ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص11

المدخل:

إن الأهمية البالغة التي يلعبها دور مراعاة المقام في الحكم على الخطاب جعلت من العلماء ينبهون إلى جملة من الأمور الواجب احترامها عند كل من أراد الكتابة والتأليف، من ذلك ضرورة تحري الناظم لحسن الابتداء لكونه أول شيء يقرع الأسماع، كما أكدوا على وجوب النظر في أحوال المتلقين وتفقد ما يكرهون سماعه ويتطيرون منه لتجنب ذكره،[10] يقول أبو هلال العسكري في خضم حديثه عن قصة كان صاحبها مناقضا لمقتضى المقام:" وأما قصة إبراهيم ابن إسحاق الموصلي فإني لأنفعل وأخجل عند سماعها، وما ذاك إلا أنه دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصره بالميدان، فشرع في إنشاد قصيدة نزل بمطلعها إلى الحضيض وكان هو حكاية الحال في طرفي النقيض وهو:

يا دار غيرك البلا ومحاك *** يا ليت شعري ما الذي أبلا

فتطير المعتصم من فتح هذا الابتداء وأمرهم بهدم القصر على الفور." [11]

هذا وقد اعتنى النحاة بدورهم بالمقام الذي تتشكل فيه العناصر اللغوية مشيرين بذلك إلى تأثير السياق اللغوي وسياق الحال الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير،وغير ذلك مما يتعلق بهذه الدراسة، ولعل أول من تنبه إلى ضرورة استحضار المقام للحكم على صحة المعنى، سيبويه في الكتاب، حيث ربط فهم النص وما يمكن أن نقدره من عوامل محذوفة تؤثر فيه بما يحف بالكلام من أحوال وملابسات لحظة إنتاجه،[12]

يقول سيبويه عند ذكره لجملة من الأمثلة التي حذفت فيها بعض عناصر الجملة وبيّن المقام معناها:" ..فإذا رأيت.... رجلاً يسدد سهماً قبل القرطاس فقلت: القرطاس والله، أي يصيب القرطاس. وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس قلت: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس.ولو

---

[10] ــ مقدمة في صناعة النظم والنثر، شمس الدين بن حسن النواجي، ص/ 49، 50

[11] ــ الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، 432

[12] ــ التأويل اللغوي في القرآن الكريم، دراسة دلالية، حسن حامد الصالح، ص129

المدخل:

رأيت ناساً ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا لقلت: الهلال ورب الكعبة، أي أبصروا الهلال"[13]

ومن هنا يتضح اهتمام سيبويه بالمقام وتوظيفه له في بيان المعنى والحكم على الجملة بالصحة رغم حذف الأفعال منها، فلو ذكرت هذه الجمل بمعزل عن المقام الذي وردت فيه لعد الكلام ناقصا وغير صحيح.

ومن المسائل التي وظف فيها المقام أيضا، التقديم والتأخير، فقد تكفلت مباحث علم المعاني بإيضاح مقتضي التقديم والتأخير والأحوال التي يرد فيها كل منها، وفي هذا المعنى يذكر ابن الزبير ــ في ملاك التأويل ــ أن سبب التقديم والتأخير الوارد في قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام 103)، وقوله:﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ (غافر62) يعود إلى أن تقديم الوصف بالوحدانية لله تعالى في الآية الأولى يتناسب مع ما تقدم[14] قبلها في قوله تعالى:﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ وقوله: ﴿ **أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ** ﴾(الأنعام102،101) فالمقام الذي ذكرت فيه هذه الآية, مقام نفي لما ادعاه المشركون من جعلهم لله الشركاء، والصحبة، والولد، وتقرير لوحدانيته تعالى وتنزيهه عما ادعوه، فناسب ذلك تقديم هذا الوصف، أما الآية الثانية فقد تقدم في سياقها قوله تعالى:﴿ **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ ثمّ قوله:﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**﴾ (غافر58إلى61) فلما تقدم ذكر خلق الله تعالى وذكر فضله على عباده، ناسب ذلك تقديم ذكر الخلق وتأخير إقرار الوحدانية بحسب ما اقتضاه المقام. [15]

---

[13] ــ الكتاب، سيبويه، (ج1/ ص257)

[14] ــ ملاك التأويل، ابن الزبير، (ج1/ ص468)

[15] ــ المصدر نفسه، (ج1/ ص468)

وبهذا يمكن القول أن الدراسات اللغوية العربية قد اعتنت بفكرة المقام في وقت مبكر ووظفته في مختلف المجالات باعتباره وسيلة فعالة من وسائل تحليل المعنى والكشف عن الدلالة.[16]

ثانيا) ــ مظاهر الاهتمام بالمقام في الدراسات الأصولية.

لقد تنبه عالم الأصول منذ الوهلة الأولى إلى أن النصوص الشرعية ليست مجرد ألفاظ تتآلف لتحمل دلالات معينة فحسب، إذ الكلام في أي لغة من اللغات ومهما تنوعت أساليبه لم يكن ليكفي في الدلالة على مقصد المتكلم دلالة لا تحمل شكا في مراده من ذلك اللفظ،[17] ولما كان الأساس عند الأصوليين هو ضبط مقاصد الشارع من الخطاب، فقد تنوعت مباحثهم الدلالية في ذلك بحسب اعتبارات متنوعة، كاعتبار حال المتكلم، وحال السامع، واعتبار كمال المعنى الموضوع له اللفظ، وكمال المعنى الموضوع له الخطاب، مع مراعاة شمول الخطاب لأفراد محصورين، وشيوع الاستعمال، وتغير الخطاب بحسب تغير الأحوال والأزمان، واعتبار وضوح النص وخفائه، وكيفية دلالته،[18] كما أكدوا على ضرورة معرفة ما يحف بالكلام من قرائن كالسياق والمقام الذي ورد فيه الخطاب، لتتضافر كل هذه العوامل وتعمل على إزالة الاحتمالات التي قد تعرض للمتلقي في بيان مراد الملقي من كلامه،[19] يقول الطاهر بن عاشور في سياق حديثه عن أهمية معرفة مقامات الخطاب وما يحف بالكلام من قرائن:"ومن هنا يقصر بعض العلماء ويتوحل في خضخاض من الأغلاط حين يقتصر في استنباط أحكام الشريعة على اعتصار الألفاظ ويوجه رأيه إلى اللفظ مقتنعا به فلا يزال يقلبه ويحلله ويأمل أن يستخرج لبه، ويهمل ما قدمناه من الاستعانة بما يحف بالكلام من حافات القرائن، والاصطلاحات، والسياق، وأن أدق مقام في الدلالة وأحوجه مقام التشريع..."[20]

---

(16) ــ اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص337

(17) ــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص27

(18) ــ نظرية المقاصد عند الإمام الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسيني، ص339

(19) ــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص27

(20) ــ المرجع السابق ص/ 27

المدخل:

ولعل أكبر دليل على اهتم الأصوليين بهذه الأداة واعتبارها أساسا من أسس التفسير والكشف عن الدلالة،" تسليم جملة من أهل النظر منهم من أن احتفاف القرائن بالخطاب من شأنه أن يجعل الاستدلال به استدلالا يقينيا، أو على الأقل استدلالا مفيدا للظن الراجح"[21] يقول الرازي:" فاعلم أن الإنصاف أنه لا سبيل إلى استفادة اليقين من هذه الدلائل اللفظية إلا إذا اقترنت بها قرائن تفيد اليقين سواء كانت تلك القرائن مشاهدة أو منقولة إلينا بالتواتر"[22]

هذا ويمكن القول أن الفعالية التي يشكلها دور المقام لا تقتصر على تحديد وجوه الدلالة التي تحملها الألفاظ فحسب، بل تتعدى ذلك لتصل إلى حد استقلالها في الدلالة كاستقلال الخطابات القطعية،[23]

هذا ما يمكن أن يستفاد ممّا أورده الغزالي في " المستصفى" حيث حصر في مقدمته مدارك العلوم في خمسة أنواع: الأوليات (العقليات المحضة)، والمحسوسات الظاهرة، والمشاهدات الباطنة، والتجريبيات، والمتواترات،[24] ثم أضاف في موضع آخر مدركا سادسا وهو مدرك القرائن المقامية،[25] فقد اعتبر الغزالي أن هذه القرائن لا تختلف في شيء عن الخبر من حيث أن مجرد الخبر قد يورث العلم عند تعدد المخبرين وإن لم يكن هنالك قرينة، ومجرد القرائن أيضا قد تورث العلم وإن لم يكن فيه إخبار،[26] وقد مثل العلماء لهذا القول بأمثلة منها:" أن الذي يشاهد

---

[21] ــ نظرية المقاصد عند الإمام الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسيني، ص/ 339

[22] ــ المحصول في أصول الفقه، أبو بكر الرازي، (ج1/ ص237)

[23] ــ المنهج الأصولي في فقه الخطاب،إدريس حمادي، ص/ 96

[24] ــ المستصفى، أبو حامد الغزالي، ص/36،37

[25] ــ المنهج الأصولي في فقه الخطاب، إدريس حمادي، ص/96

[26] ــ المستصفى، أبو حامد الغزالي، ص/108

من الصبي امتصاص الثدي، وتحرك اللهاة، وجرجرة الغلصمة من التجرع، له أن يجزم الشهادة على الرضاع"[27]

وبهذا يمكن أن اجتماع جملة من القرائن واتحادها يعد مدركا من مدارك العلم وإن كانت لا تفيد ذلك إن وردت بصورة مستقلة. كما صنف الغزالي أيضا القرائن المقامية في "المنخول" ضمن أنواع العلوم حيث قال عند بيانه لمراتب العلوم:" ... الخامس فهم فحوى الخطاب ودرك قرائن الأحوال، من الخجل، والغضب، والوجل، وهو أخفى من التواتر..."[28]

إن الدور الفعال الذي تشكله أهمية المقام في الكشف عن الدلالة وبيان المعنى جعل من علماء الأصول يؤسسون جملة من القواعد اعتمادا على هذا الأصل منها:

ترجيح فهم الصحابة وتفسيرهم للنصوص الشرعية على غيرهم من الأفهام، وذلك لأن الصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا التنزيل وعرفوا ما كان يحف بالخطاب من قرائن وأحوال، كما عرفوا المحال التي تتغير باعتبارها الأحكام من التي لا تتغير،[29] فقد كانوا يسألون رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا عرضت لهم الاحتمالات وكانوا يشاهدون من الأحوال ما يبصرهم بمقصد الشارع الحكيم، فبهذا الاعتبار يترجح قول الصحابي على غيره ممن لم يعرف المقام الذي ورد فيه الخطاب.[30]

وما احتجاج إمام دار الهجرة بعمل أهل المدينة إلا لهذا الاعتبار، إذ المدينة كانت المقر الذي تتواجد فيه آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعماله،[31] وأعمال الصحابة والتابعين من بعده، ففي هذه الآثار بيان لما يدفع احتمالات كثيرة قد تعرض للمجتهد عند تفسيره للنص

---

[27] ــ البرهان في أصول الفقه، أبو المعالي الجو يني، (ج1/ ص86)، أنظر: المستصفى، الغزالي، (ص/ 108) البحر المحيط، الزركشي، (ج1/ ص65،66)

[28] ــ المنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد الغزالي،ص/105

[29] ــ أصول السرخسي، أبو بكر السرخسي (ج2/ ص108)

[30] ــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/28

[31] ــ الأحكام، الآمدي، (ج1/ ص303)

الشرعي، ولهذا السبب كان العلماء من التابعين وتابعيهم يشدون الرحال إلى المدينة ليبصروا هذه الآثار فيتضح لهم من خلالها ما يستنبط من العلل تبعا لمعرفة الحكم والمقاصد.[32]

ويمكن أن نلحظ اهتمام الأصوليين بفكرة المقام أيضا من خلال أبواب بوبوها تدل عناوينها على أهمية المقام في فهم النصوص الشرعية ومن ذلك ما ذكره الجصاص تحت عنوان:

" فصل في الظواهر التي تقضي عليها دلالة الحال" فقد اعتبر الجصاص في هذا الفصل أن المقام قرينة من القرائن التي يمكن أن تصرف اللفظ عن ظاهره وتنقل حكمه إلى ضد ما يوجبه اللفظ في حقيقته اللغوية، واستدل على ذلك بأمثلة منها قوله تعالى: ﴿ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (فصلت40)، وقوله:﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف29)،وقوله أيضا: ﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ** ﴾ (الإسراء64)، فلو وردت هذه الخطابات عارية عن مقاماتها لاقتضى ظاهر هذه النصوص إباحة هذه الأفعال، وهي أفعال بينت دلالة الحال على أنها وردت في مقامات الزجر والوعيد، بخلاف ما يقتضيه حكم اللفظ العاري عن ما يدل عليه الحال.[33]

ومنه أيضا قول النجاشي:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة *** فعادى بني عجلان رهط ابن مقبل

قبيلة لا يغدرون بذمة *** لا يظلمون الناس حبة خردل[34]

ومعلوم أن نفي الظلم والغدر عن النفس من الصفات الحميدة التي يحمد صاحبها عليها، إلا أن هذا القول في هذا الموضع ذم وهجاء ومعناه أنهم أقل من أن يوثق لهم بذمة يغدرون بها، وأعجز من أن يظلموا أحدا، وما استفيد هذا المعنى إلا من دلالة الحال عليه فلو سيق هذا البيت بعيدا عن مقامه لعد مدحا لهذه القبيلة لا هجاءا لها. [35]

---

[32] ــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/28

[33] ــ الفصول في الأصول، أبو بكر الجصاص، (ج1/ص، 50، 51)

[34] ــ ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، (ج1/ ص372)

[35] ــ الفصول في الأصول، أبو بكر الجصاص، (ج1/ص51)

المدخل:

من المسائل التي أعمل فيها بعض الأصوليين المقام أيضا، الاحتجاج بمفهوم اللقب فبالرغم من أن الجمهور على أن اللقب لا مفهوم له لأن فائدة ذكره إمكان الإسناد إليه،[36] ومع ذلك فقد اعتبره بعض العلماء من الذين نفوا حجيته إذا دل عليه المقام، هذا ما اختاره الغزالي في "المنخول"، وقد رد على ابن الماجشون في تعليله الربا في الأصناف الأربعة المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم:"التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلا بمثل ويدا بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى إلا ما اختلفت ألوانه"[37] بالمالية العامة،[38] حيث قال:" إذا قلنا لم تكن الأشياء الأربعة غالب ما يجري عليها التعامل وكان الحجاز مصب التجار في الأعصار الخالية فلو ارتبط الحكم بالمالية لكان التنصيص عليها أسهل من التخصيص كما قال في العارية "على اليد ما أخذت حتى ترد"[39] وكان هذا مأخوذا من قرائن الأحوال مع التخصيص باللقب."[40]

ومن بين أهم مظاهر اهتمام الأصوليين بفكرة المقام تعاملهم مع تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم اعتمادا على هذه القرينة، حيث يلحظ الناظر في تقسيماتهم لأفعاله صلى الله عليه

---

(36) ــ منهج الاستدلال بالسنة في المذهب المالكي، مولاي حسين الحيان، (مج1/ ص194)

(37) ــ أخرجه البخاري:(ك، البيوع، باب: بيع التمر بالتمر، مج2، ج3، ص41، رقم: 2170)، مسلم واللفظ له: (ك، البيوع، باب: الصرف وبيع الذهب بالورق نقدا، (مج6، ج11، ص16، رقم:1588)

(38) ــ منهج الاستدلال بالسنة في المذهب المالكي، مولاي حسين الحيان، (مج1/ ص194)

(39) ــ أخرجه: أبو داود، ك: الإجارة، باب: تضمين العارية،(مج2، ج3، ص296، رقم: 3561)، الترمذي، ك: البيوع، باب: ما جاء في العارية مؤداة، (ج3، ص565، 566، رقم: 1266)، ابن ماجة، ك: البيوع، باب: العارية(ج2، ص802، رقم:2400)، أحمد،الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن الحسن الشيباني، ج15، ص129، رقم:410 والحاكم، ك: البيوع، باب: حديث أبي هريرة،(ج2، ص55، رقم: 2302)، الحديث قال عنه الترمذي " حسن صحيح" وصحح إسناده الحاكم حيث قال: صحيح الإسناد على شرط البخاري" ووافقه الذهبي في التلخيص، وذكره الألباني في ضعيف سنن الترميذي، ك: البيوع، ص/ 149، وضعيف سنن أبي داود، ك: البيوع، ص/ 350، 351

(40) ــ المنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد الغزالي، ص/ 301، 302

المدخل:

وسلم، أن أساس هذه التقسيمات يعود إلى تلمس القصد الحقيقي لكل فعل، هل هو مسوق في مقام هواجسه النفسية وحركاته البشرية أم هو وارد في مقامات أخرى. [41]

ويبقى تناول القرافي لهذا المبحث تناولا متميزا عن سائر الدراسات الأصولية الأخرى، كونه نظر إلى تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله باعتبارات متعددة يجب على المتطلع لمعرفة قصد الشارع استحضارها،([42]) فصاحب الشرع قد يكون في بعض التصرفات مبلغا وقد يكون إماما، وقد يكون قاضيا،لذا وجب استحضار المقام الذي كان سببا في صدور ذلك القول أو الفعل [43]

ومن خلال ما تم بيانه يمكن القول أن المقام يشكل في الدراسات الأصولية أداة منهجية فعالة استخدموها في مختلف المباحث، وكان قصدهم من وراء استحضارها البحث عن المعنى والكشف عن الدلالة.[44]

---

[41] ــ نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسيني، ص/ 348

[42] ــ المرجع نفسه، ص/ 347

[43] ذكر الطاهر بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة، ص/ 28، أن أول من اهتدى إلى النظر في هذا التمييز الإمام القرافي في كتابه أنواء البروق في الفروق (ج1/ ص357، القاعدة، 36) وقد أضاف على هذه الأنواع مقامات أخرى تتمثل فيمايلي:" الهدي، الصلح، الإشارة على المستشير، النصيح، تكميل النفوس، تعليم الحقائق العالية، والتأديب، والتجرد عن الإرشاد"، وقد ذكر هذه التقسيمات قبل القرافي العز بن عبد السلام عند بيانه لقاعدة الحمل على الغالب والأغلب في العادات في كتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام - (ج 2 / ص 121) قال:" فَمِنْ هَذَا تَصَرُّفُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفُتْيَا وَالْحُكْمِ وَالْأَمَانَةِ الْعُظْمَى، فَإِنَّهُ إمَامُ الْأَئِمَّةِ، فَإِذَا صَدَرَ مِنْهُ تَصَرُّفٌ حُمِلَ عَلَى أَغْلِبْ تَصَرُّفَاتِهِ وَهُوَ الْفُتْيَا مَا لَمْ يَدُلَّ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِهِ "

[44] ــ أنظر تفاصيل أكثر عن هذه المسألة في الفصل التالي، مبحث أهمية المقام، ص 57ــ 62 من هذا البحث..

ثالثا) ــ مظاهر الاهتمام بالمقام في المصنفات الفقهية و الشروح الحديثية

إن المتأمل في المصنفات الفقهية والشروح الحديثية يمكنه أن يلحظ وبوضوح أن منهجهم لم يختلف عمّا سلكه اللغويون والأصوليون في الاستعانة بالمقام وتوظيفه في دراسة النصوص وتفسيرها، فقد عنى الفقهاء والمحدثون بالمقام واستعملوه قي العديد من المسائل، سواء تعلق الأمر ببيان بعض الأحكام الشرعية، أو توظيفه في تفسير بعض النصوص النبوية، ويمكن القول أن الإمام الشافعي يعد من العلماء البارزين في هذا المجال، حيث وظف المقام في تفسير الأحاديث النبوية وأعمله في نفي ما قد يبدو من التناقض بين بعضها، كما استخدمه في تفسير نصوص أخرى وبين من خلالها حكم الشرع فيها، ومن الأمثلة التي يمكنها بيان هذا التوجه، تعامله مع الأحاديث الواردة في استقبال القبلة واستدبارها، حيث ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها، ولكن شرقوا أو غربوا. قال أبو أيوب: فقدمنا الشّام فوجدنا مراحيض قد صنعت، فننحرف ونستغفر الله." [45] كما روي مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول:" إنّ ناسا يقولون: إذا قعدت على حاجتك فلا تستقبل القبلة ولا بيت المقدس، فقال عبد الله: لقد ارتقيت على ظهر بيت لنا فرأيت رسول الله على لبنتين مستقبلا بيت المقدس لحاجته." [46]

عمل الشافعي على إزالة التناقض الذي يبدو من ظاهر هذين النصين بتوظيفه للمقام الذي ورد فيه كل منها، فذهب إلى أن النهي في الحديث الأول يعود لاحتمالين: أولهما أن العرب كانوا يذهبون لقضاء حوائجهم في الصحراء، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بعدم

---

[45] ــ أخرجه البخاري: ك، الصلاة، باب: قبلة أهل المدينة وأهل الشام والمشرق، (مج، ج1، ص129، رقم: 394)، مسلم، ك: الطهارة، باب: الإستطابة، (مج2،ج3، ص156، رقم:264)

[46] ــ أخرجه البخاري: ك: الوضوء، باب: من تبرز على لبنتين، (مج1،ج1/ ص56، رقم:145)، مسلم، ك: الطهارة، باب: الإستطابة، (مج2، ج3، ص156، رقم:266)، مالك في الموطأ، ك: القبلة، باب: الرخصة في استقبال القبلة أو استدبارها، (ص112، رقم: 457)

استقبال القبلة أو استدبارها لسعة الصحراء، فلا ضرر من أن يشرقوا أو يغربوا، كما أن الذاهبين في تلك الحال قد يكونون في غير ستر عن المصلى مما قد يؤدي إلي رؤية عوراتهم.

ويرجع الاحتمال الثاني إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم نهاهم أن يستقبلوا ما جعل قبلة في الصحراء لغائط أو بول لئلا يتغوط في القبلة فيتأذي المصلون من ذلك،[47] فإذا تغيرت هذه الأحوال بأن كانت في المساكن مرافق لقضاء الحوائج وكانت ضيقة ممّا يصعب الاحتراز من استقال القبلة أو استدبارها فلا حرج في ذلك.[48] فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الفعل في مقام يختلف عن المقام الذي رآه فيه ابن عمر رضي الله عنهما.

وبنفس الأداة رد ابن حجر استدلال القرطبي وغيره على تفضيل النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة على السيدة صفية رضي الله عنهما، لقوله صلي الصلاة والسلام لعائشة لما حاضت معه في الحج:" هذا شيء كتبه الله على بنات آدم"[49] في حين قال لصفية لما

---

[47] ــ الرسالة، محمد ابن إدريس الشافعي، ص/ 208، 209

[48] ــ اختلاف الحديث، محمد ابن إدريس الشافعي، ص/227

[49] ــ عن عائشة رضي الله عنها قالت:" خرجنا مهلين بالحج في أشهر الحج وفي حرم الحج فنزلنا سرف فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه " من لم يكن معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ومن كان معه هدي فلا " وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجال من أصحابه ذوي قوة الهدي فلم تكن لهم عمرة فدخل على النبي الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي فقال "ما يبكيك ؟" قلت سمعتك تقول لأصحابك ما قلت، فمنعت العمرة، فقال " وماشأنك؟ " قلت لا أصلي، قال **فلا يضرك أنت من بنات آدم كتب عليك ما كتب عليهن**" فكوني في حجتك عسى الله أن يرزقكها، قالت فكنت حتى نفرنا من منى فنزلنا المحصب، فدعا عبد الرحمن فقال أخرج بأختك الحرم فاهلل بعمرة ثم افرغا من طوافكما أنتضركما هاهنا...." أخرجه البخاري، ك: العمرة، باب: المعتمر إذا طاف طواف العمرة ثم خرج هل يجزئه من طواف الوداع، (مج1، ج2، ص550، رقم: 1788)، مسلم، ك: الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع...(مج4، ج8، ص132، رقم:1211)

المدخل:

حاضت:"... عقرى حلقي[50] أو ما كنت طفت يوم النحر قالت بلى قال لا بأس انفري .."[51] فرد ابن حجر هذا الاستدلال بقوله:"وليس فيه دليل على اتضاع قدر صفية عنده لكن اختلف الكلام باختلاف المقام، فعائشة دخل عليها وهي تبكي أسفا على ما فاتها من النسك فسلاها بذلك، وصفية أراد منها ما يريد الرجل من أهله[52] فأبدت المانع فناسب كل منهما ما خاطبها به في تلك الحالة"[53]

---

(50) ــ يقال للمرأة عقرى حلقى معناه عقرها الله وحلقها أي حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها، أنظر: لسان العرب، ابن منظور، (ج4/ ص591)

(51) ــ أخرجه البخاري، ك: الحج، باب: التمتع والإقران والإفراد، (مج1، ج2، ص484، رقم:145)، مسلم، ك: الحج، باب: باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران.....(مج4، ج8، ص136، رقم: 128/ 1211)

(52) ــ عن عائشة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد من صفية بعض ما يريد الرجل من أهله فقالوا إنها حائض يا رسول الله قال وإنها لحابستنا فقالوا يا رسول الله إنها أفاضت يوم النحر قال اخرجوا" أخرجه البخاري واللفظ له، ك: الحج، باب، الزيارة يوم النحر، (مج1، ج2، ص، 534، 1733)، مسلم، ك: الحج، باب، وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض، (مج5، ج9، ص82، رقم: 1211)

(53) ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني،(ج3/ ص688)

المدخل:

من المسائل التي يبرز فيها دور المقام كأداة منهجية فعالة لتفسير النصوص والاستدلال على الأحكام الشرعية، مسألة الاستدلال على فرائض الصلاة بحديث المسيء في صلاته، [54]

فقد ذهب العلماء إلى القول بأن جميع ما ورد في هذا الحديث يدخل ضمن الفرائض، وعلى عدم وجوب ما لم يذكر فيه، واستدلوا على ذلك بالمقام، قال الصنعاني:" واعلم أن هذا حديث جليل تكرر من العلماء الاستدلال به على وجوب كل ما ذكر فيه وعدم وجوب كل ما لم يذكر فيه أما الاستدلال على أن كل ما ذكر فيه واجب فلأنه ساقه صلى الله عليه وسلم بلفظ الأمر بعد قوله لن تتم الصلاة إلا بما ذكر فيه، وأما الاستدلال بأن كل ما لم يذكر فيه لا يجب فلأن المقام مقام تعليم الواجبات في الصلاة فلوترك ذكر بعض ما يجب لكان فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة وهو لا يجوز بالإجماع...."[55]

كما استدل الشافعية والحنابلة بالمقام على اختصاص التيمم بالتراب دون غيره بقوله صلى الله عليه وسلم:"..وجعلت الأرض كلها لنا مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء..." [56] فلما عدل النبي صلى الله عليه وسلم من الأرض إلى التربة في الطهورية رغم أن المقام

---

[54] ــ عن أبي هريرة قال:" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فدخل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم فرد وقال ارجع فصل فإنك لم تصل فرجع يصلي كما صلى ثم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال ارجع فصل فإنك لم تصل ثلاثا فقال والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني فقال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا وافعل ذلك في صلاتك كلها" أخرجه البخاري، ك: الأذان، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها... (مج1، ج1،ص288،رقم:757)، مسلم، ك: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...(مج2، ج4، ص106، 107، رقم: 397)

[55] ــ سبل السلام، محمد ابن إسماعيل الصنعاني، (ج1/ ص271)

[56] ــ أخرجه مسلم، ك: المساجد ومواضع الصلاة، باب، (مج3، ج5، ص6، رقم: 522)

مقام امتنان، والامتنان يقتضي زيادة ما يمتن به، فدل اقتصار ذكر التراب على اختصاصه بالحكم. (57)

ومن هنا يتبين أن مراعاة المقام كانت من المسائل المهمة عند مختلف العلماء والعلوم، سواء تعلق ذلك بالعلوم اللغوية، أو العلوم الشرعية، وسواء كان توظيف المقام في دراسة النصوص الحديثية أو القرآنية. وتبقى الإشارة إلى أن ما نهجه المفسرون وعلماء القرآن في توظيفهم للمقام لا يختلف عن هذا النهج، هذا ما يمكن أن يلحظ من خلال مختلف العناصر التي تناولها هذا البحث.

ولأن كان العلماء قد وظفوا المقام واعتبروه من الأدوات المهمة في فهم النصوص، فما هو مقصودهم بالمقام وكيف يمكن أن تتجلى حقيقته؟

(57) ــ المغني، ابن قدامة المقدسي، (ج1/ ص319)

الفصل الأول: حقيقة مقامات الخطاب

المبحث الأول: تعريف مقام الخطاب وعناصره

المطلب الأول: تعريف مقام الخطاب

المطلب الثاني: العناصر المكونة لمقام الخطاب

المبحث الثاني: طرق الكشف عن المقام

المطلب الأول: أثر السياق في الكشف عن المقام

المطلب الثاني: أثر عادات العرب في الكشف عن المقام

المطلب الثالث: أثر أسباب النزول في الكشف عن المقام

المبحث الثالث: أثر المقام في فهم النصوص الشرعية

المطلب الأول: أثر المقام في تفسير النصوص وبيان مقاصد الشارع

المطلب الثاني: أثر المقام في دفع التعارض الظاهر بين النصوص

الفصل الأول: حقيقة مقامات الخطاب:

من بين المسائل التي يمكنها أن تبين حقيقة المقام وتكشف عن كنهه، بيان تعريفه عند العلماء وبيان أهم العناصر التي يتكون منها، وهو ما يتناوله المبحث الأول من هذا الفصل، كما تمثل معرفة الوسائل التي من شأنها أن تكشف عن المقام دورا كبيرا في توضيح معناه وبيانه، وهو ما سيذكر في المبحث الثاني، أما المبحث الثالث فيبين الأهمية التي يلعبها المقام في فهم النص الشرعي والكشف عن مقاصده.

المبحث الأول: تعريف مقام الخطاب وعناصره

ويتناول هذا المبحث التعريف اللغوي والاصطلاحي لكل من المقام والخطاب، ومجموع العناصر التي يتكون منها مقام الخطاب وهي كالتالي:

المطلب الأول: تعريف مقام الخطاب

أولا) ــ تعريف المقام

1) ــ لــغــة: المَقامُ في اللغة يعني موضع قيام الناس أو مجلسهم، قال تعالى: ﴿**يا أهل يثرب لا مَقامَ لكم**﴾ (الأحزاب،13) أي لا موضع لكم،[1] وقال أيضا: ﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ** ﴾ (الدخان25، 26)،

أي موضع كانوا يقيمونه شريف كريم.[2]

2) ــ اصطلاحــا: أما تعريفه اصطلاحا، فبالرغم من اهتمام العلماء بالمقام وتوظيفه في العديد من المجالات باعتباره وسيلة فعالة للكشف عن الغموض الذي قد يعتري بعض النصوص، إلا أني لم أجد له تعريفا محددا عندهم، ولعل السبب في ذلك يعود إلى عوامل من أبرزها، أنهم لم ينظروا للمقام كعلم قائم بذاته ينبغي أن يؤسس له، وإن عده الغزالي ضمن النوع الخامس من

---

(1) ــ لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، (ج 12 / ص 496)، أنظر مختار الصحاح، محمد ابن أبي بكر الرازي، 232/

(2) ــ تفسير الطبري، ابن جرير الطبري، (مج11، ج25، ص73))

العلوم،[3] فقد تحدثوا عنه كمسألة معروفة لديهم لا تحتاج إلى تعريف، ومع ذلك لم يتعاملوا معه كقاعدة من القواعد التي وضعوا لها ضوابطا وحددوا لها حدودا. هذا فيما يخص الدراسات عند السابقين، أما الدراسات الحديثة، فقد اتجهت البحوث الدلالية نحو توظيف المقام لبيان الدلالة والكشف عن المعنى،[4] بل ويمكن القول أن فكرة المقام والسياق أصبحت المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفية،[5] ومع ذلك لا يزال الباحث عن تعريف للمقام يجد صعوبة في ذلك، ولعل السبب يعود إلى اختلافهم في تحديد مفهوم دقيق للمقام، هذا ما يمكن أن يظهر من التعريفات التالية:

عرف أحمد الهاشمي المقام بقوله:".. وحال الخطاب ويسمي المقام، هو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عبارته على صورة مخصوصة"[6]

ففي قوله " **الأمر الحامل** " احتراز عن الأمور التي لا أثر لها في إيراد الخطاب، ويدخل في هذا الأمر " **حال المُخَاطِب**" و" **حال المُخَاطَب**" لما لهما من أثر في توجيه النص، كما يدخل في ذلك **الأحوال المحيطة بالكلام** ساعة صدوره، أما قوله " **في صورة مخصوصة**" فقد بين ان مقصوده من ذلك، الصورة التي تورد عليها العبارة، فالمدح مثلا حال تدعو بأن تكون العبارة على صورة الإطناب، وذكاء المُخَاطَبِ حال تدعو لمجيئها على صورة الإيجاز، فكل من المدح والذكاء مقام اقتضى أن تورد العبارة في هيئة تتوافق ومقتضى الحال.[7]

(3) ـــ أنظر ص16 من هذا البحث

(4) ـــ التأويل اللغوي في القرآن الكريم دراسة دلالية، حسين حامد صالح، ص 127

(5) ـــ اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 337

(6) ـــ جواهر البلاغة في المعاني البيان والبديع، أحمد الهاشمي، ص 30

(7) ـــ المرجع نفسه، ص/30

وعرفته سلوى محمد العوّا [8] بأنه:" سياق الواقع الخارجي المحيط باللغة وهو مؤثر في اللغة ولكن ليس من صميمها" [9]. بمعنى أن أثر الواقع في اللغة يرجع إلى الظرف الخارجي المحيط بالكلام أكثر من كونه راجعا إلى اللغة نفسها ألفاظا أو معاني، وهي بهذا التعريف لا تبعد كثيرا عن التعريف السابق، وإن كانت قد أهملت أثر هذه الظروف في أسلوب الخطاب والصورة التي يكون عليها النص.

أما تمام حسان فقد ذكر في تعريفه، جملة من العناصر المكونة للمقام حيث قال:" إن مجموع الأشخاص المشاركين في المقال إيجابا وسلبا ثمّ العلاقات الاجتماعية والظروف المختلفة في الزمان والمكان هو ما أسميه " المقام"[10]

والمقصود "**بالأشخاص المشاركين**" في المقال من لهم أثر في تكوينه، أي "**المُخَاطِبُ**" و"**المُخَاطَبُ**" وكل من له دور في توجيه الكلام، أما "**العلاقات الاجتماعية**" "**والظروف**" فكل ما كان سائدا زمن صدور الخطاب ومكانه، وهو بهذا المفهوم يوسع من دائرة المقام، فالمقام عنده لا يرجع إلى ظرف معين أو حادثة خاصة وقعت وقت صدور المقال فحسب، وإنما يشمل جميع الظروف والعادات التي كانت سائدة وقت إلقائه وإن لم تكن مرتبطة بصورة مباشرة بالنص. [11]

لم يقتصر إسماعيل الحسيني في تعريفه للمقام على سياق الواقع الخارجي المحيط بالخطاب، بل وسع من مفهومه واعتبر بأنه عملية تفاعل بين الخطاب ذاته وما يحيط به من عوامل وأحوال، هذا ما يمكن أن يستشف من قوله:" مقام الخطاب الشرعي، هو جملة من لعناصر اللغوية الصادرة عن

---

(8) ــ أورد ت سلوى العوا هذا التعريف لمقتضى الحال، وهي لا تفرق بينه وبين المقام حيث أكدت ذلك عند كلامها عن دراسة السياق عند ابن القيم قالت:"... نلاحظ تصريحه بلفظ السياق على خلاف ما عند البلاغيين من تعبيرات أخرى، كمقتضى الحال والمقام " أنظر الوجوه والنظائر, سلوى محمد العوا، ص/63

(9) ــ المرجع نفسه،ص/63

(10) ــ اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص/ 351

(11) ــ المرجع نفسه، ص/ 360

الشارع، والشروط الخارجية المحددة لحالات استعمال الخطاب التي تساهم كلها في ضبط المعنى المقصود"[12]

فالحسيني يجمع في هذا التعريف، بين عناصر المقام اللغوية الداخلة في الخطاب أو ما يعبر عنه "**بمقام المقال**"، وبين الظروف الخارجية المحيطة به ويسميها "**مقام الحال**" بحيث يحصل من مجموع هذه العناصر بيان مراد المخاطب.

و يمكن أن يلاحظ من خلال هذه التعاريف وجود اتجاهين في تعريف المقام: الاتجاه الأول ضيق من مفهومه، حيث حصره في الظروف الخارجة عن المقال، وإن اختلف في مفهوم هذه الظروف، والاتجاه الثاني والمتمثل في تعريف إسماعيل الحسيني، فقد أعطاه بعدا أوسع، ولعل هذا الأخير هو التعريف الشامل، لما للغة ذاتها من أثر في بيان المقام، وذلك لأن في مجرد قراءة النص تنبيئ عن الأحوال التي أنتج في ضوءها، ومن هنا يمكن القول أن مقام الخطاب :" **جملة الأمور المكونة للخطاب والمحيطة به، والتي يحصل من مجموعها بيان مقصود المخاطب**"

و لئن كان المقام هو جملة الأمور المكونة للخطاب فيجدر بنا إعطاء تعريف للخطاب وهذا ما سأتناوله في العنصر التالي.

(12) ـــ نظرية المقاصد عند الإمام الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسيني، ص338

ثانيا) ــ تعريف الخطاب

1)ــ لــغـــة: الخطاب في اللغة أحد مصدري الفعل خاطب يخاطب خطابا ومخاطبـــة، ويقصد منه مراجعة الكلام[13] قال تعالى: ﴿**وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُـــوا إِنَّهُـــمْ مُغْرَقُـــونَ**﴾ (هود37) أي لا تراجعني.[14]

2) ــ اصطلاحا: عرف الأصوليون الخطاب بتعاريف عديدة كان مدارها التمييـــز بـــين الخطاب النفسي[15] ــ إن صح إطلاق مسمى الخطاب على الكلام النفسي ــ والخطاب اللفظي، وبيان العلاقة بينهما، ولأنّ ما يهم في هذا المقام، الخطاب الموجه نحو المكلفين لبيـــان مقاصـــده والكشف عن الأحكام المترتبة عليه، سأكتفي بتعريف الخطاب اللفظي.

من التعاريف التي عرف بها الخطاب :" أنه الكلام[16] الذي بحيـــث يوجـــه إلى المتـــهيئ لفهمه"[17]

ففي قيد "**الكلام الموجه**" إخراج للكلام النفسي، وفيه إشارة إلى قصد المخاطـــب مـــن توجيه هذا الكلام، أما قيد "**المتهيئ لفهمه**" ففيه إخراج لمن هو غير متهيئ لـــذلك، كالصـــغير والمجنون والمغمى عليه.

---

(13) ــ مختار الصحاح، محمد ابن أبي بكر الرازي، ص/ 76

(14) ــ جامع البيان في تأويل القرآن، محمد ابن جرير الطبري، (مج11، ج25، ص73)

(15) ــ وقع خلاف بين الأصوليين في جواز تسمية كلام الله تعالى في الأزل خطابا، فذهب الأشعري والقشيري إلى جوازه، وهو القول الذي صححه الزركشي، ومنع ذلك القاضي أبو بكر الباقلاني، لعدم وجود مخاطب حينئذ وتابع هذا القول الغزالي في المستصفى، أنظر الإبهاج في شرح المنهاج، تاج الدين السبكي،(ج1/ ص43)، البحر المحيط، الزركشي(ج1/ص126)، المستصفى، الغزالي، ص/ 68

(16) ــ إذا كان الكلام هو الخطاب والخطاب هو الكلام يحصل من مسمى الخطاب قولان: الأول أن الكلام هو ما تضمن نسبة إسنا دية والثاني أخص منه، وهو الكلام الموجه نحو الغير. أنظر الإبهاج في شرح المنهاج، تاج الدين السبكي، (1/ 43)

(17) ــ التقرير والتحبير، (ج2/ ص100)

وعرفه بعض الأصوليون بأنه:" الكلام الذي يفهم المستمع منه شيئا"[18]

غير أن هذا التعريف قد اعترض عليه لعدم اتسامه بالدقة[19]، كونه يشمل أيضا الكلام الذي لا يقصد منه المتكلم إفهام المتلقي، فلا يعقل من قولنا أن الكلام خطاب لنا إلاّ أنّه قد وجه نحونا، ولا معنى لهذا التوجيه، إلاّ أنّ القصد منه إفهامنا[20] فعلى هذا لا يسمى ما ذكـــر في هـــذا الحـــد خطابا[21]

وعرفه الآمدي بأنه:" اللفظ المتواضع عليه المقصود منه إفهام من هو متهيئ لفهمه"[22] وهو تعريف لا يبعد كثيرا عمّا ذكره المتقدمون، فهو عندهم:" الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيئ للفهم"[23]

وفي شرح الآمدي لتعريفه ذكر أنه قد احترز بقوله" **اللفظ**" عمّا وقعت المواضعة عليه من الحركات والإشارات المفهمة فهي لا تدخل في مسمى الخطاب، كما احترز بقولـــه "**المتواضـــع عليه**" عن الألفاظ المهملة، وفي قوله "**المقصود منه إفهام من هو متهيئ للفهم**" إخراج للكـــلام الذي لا يقصد منه الإفهام لأنه لا يسمى خطابا، وإخراج أيضا لمن ليس متهيئا لتلقـــي الخطـــاب وفهمه[24]

ومن خلال هذه التعاريف يمكن القول أن فهم الخطاب متوقف على فهم إرادة المُخاطِـــب ومعرفة المُخَاطَب إن كان متهيئا لتلقيه، وحتى يتسنى ذلك يجب معرفة الأحوال والظروف المحيطة

---

(18) ــ الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، (ج1/ ص95)

(19) ــ المصدر نفسه،ص/95

(20) ــ المعتمد في أصول الفقه (1/ 316)

(21) ــ الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي (ج1/ص 95)

(22) ــ المصدر نفسه،ص/95

(23) ــ البحر المحيط، الزركشي، (ج1،ص 126)

(24) ــ الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي (1/ 95)

بالكلام ساعة إصداره. وبمجموع هذه العناصر يتشكل لنا مقام الخطاب، وهو ما سأتناوله في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: العناصر المكونة للمقام

بعد أن تبين أنه لا يصح أن يطلق على أي كلام مسمى الخطاب ما لم يقصد منه صاحبه إفهام من هو متهيئ لتلقيه، وأنه لا يمكن الوصول إلى تحديد مقصود المخاطب تحديدا دقيقا بعيدا عن المقام الذي ورد فيه هذا الخطاب، وذلك لأن مدار الكلام على مقتضيات الأحوال، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب أحوال المُخَاطِبِين والمُخَاطَبِين، والظروف المحيطة بالخطاب[25] أو بعبارة أخرى إنّ أي خبر يقتضى جملة من الأمور الخادمة له، بحسب حال المخبر، والمخبر عنه، والمخبر به، ونفس الإخبار، في الحال والسياق ونوع الأسلوب، سواء من حيث وضوحه وخفائه، أو من حيث إيجازه وإطنابه، وغير ذلك من الأمور الخادمة لعملية الفهم،[26] يمكن القول أن مقام الخطاب يرتكز أساسا على أربعة عناصر جوهرية يجب استحضارها لتحصيل المقصود هي:

أولا) ــ لغة الخطاب: وهي العنصر الأول الذي يتحكم في فهم المقصود من النص، فكلما كانت لغة الخطاب أكثر سهولة ووضوحا، كان إدراك معناها أسير،[27] ولئن كان علماء البلاغة قد اهتموا باللغة من حيث تنوع أساليبها وبيان مدى مطابقة كل أسلوب للحال الذي ورد فيه، كالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف والإيجاز،[28] وما إلى ذلك من الأساليب التي بينوا مواطن إعجاز القرآن الكريم فيها، فإن الدراسات الأصولية قد تناولت النص القرآني من جوانب مختلفة عن هذه الدراسة، وذلك لأنّ الأصوليين قد عمدوا إلى وضع قواعد تساعد على استنباط الأحكام من النصوص الشرعية، لذا نظروا إلى النص الشرعي من حيث إفادته للمعنى استقلالا أو

---

(25) ــ الموافقات، الشاطبي،(مج2، ج3/ ص241)

(26) ــ المصدر نفسه (مج1، ج2، ص307)

(27) ــ طرق الكشف عن المقاصد، نعمان جعيم، (ص/ 82)

(28) ــ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، (1/ 80)

عدم إفادته لها بصورة مستقلة،[29] فإن كان من النوع الذي يستقل بنفسه في بيان المراد، أي لا يحتاج إلى قرائن لبيان دلالته ويكون حجة، فهو النص والظاهر، إذ الاحتمال في النص يكون منعدما بالمرة، وهو في الظاهر وبالرغم من وجوده إلا أنه احتمال مرجوح، لذا يكون الواجب فيهما معا الاعتماد على ما وضع له اللفظ في الأصل من حقائق لغوية، أو عرفية، أو شرعية، أما إذا كان من النوع الذي لا يعرف معناه إلا بانضمام قرينة إليه، فهو المجمل والمؤول،[30] والقرائن إما أن تكون سمعية، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾ (الأنعام141)، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم بأن حقه هو العشر،[31] أو أن تكون عقلية، وهي التي تبين ما يجوز من اللفظ ممّا لا يجوز منه [32] وذلك نحو قولك:" رأيت أسدا يكتب"فالعقل يحيل أن يكون المراد من الأسد هنا حقيقة اللفظ وذلك لعلمه بأن البهيمة لاتكتب،[33] " وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد لها فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة أو مع قرائن من ذلك الجنس أو من جنس آخر حتى توجب علما ضروريا بفهم المراد أو توجب ظنا، وكل ما ليس له عبارة موضوعة في اللغة فتعين فيه القرائن..."[34] ففي توفر هذه القرائن بيان لمقصود المخاطب، إن كان قصد من اللفظ العام مثلا الاستغراق، ومن الاستفهام معناه أو معنى آخر، كالتقرير والتوبيخ، أو أنه قصد من الأمر الوجوب أو الندب، كل هذه الاحتمالات التي تحملها طبيعة اللغة، تتدخل القرائن

---

[29] المنهج الأصولي في فقه الخطاب، إدريس حمادي، ص/ 69

[30] ــ مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، " القرينة ودورها في بيان المعنى المراد" إدريس حمادي، ص/ 183

[31] ــ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ وَالْعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا الْعُشْرُ وَمَا سُقِيَ بِالنَّضْحِ نِصْفُ الْعُشْرِ" أخرجه البخاري واللفظ له،ك: الزكاة، باب: العشر فيما يسقى من السماء والماء الجاري،(مج1،ج2، ص458، 459، رقم:1483 ومسلم، ك: الزكاة،باب ما فيه العشر أو نصف العشر، (مج4، ج7، ص59، رقم: 981)

[32] ــ مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، "القرينة ودورها في بيان المعنى المراد"، إدريس حمادي، ص/ 191

[33] ــ المسودة، جمعها: شهاب الدين أبو العباس الحنبلي، ص/ ص99

[34] ــ المستصفى في أصول الفقه، أبو حامد الغزالي، ص/ 175

في إزالتها أو التخفيف منها، لذا وجب دراسة اللغة في ضوء باقي العناصر المكونة للمقام والتي أذكرها على النحو التالي:

ثانيا) ـــ حال المخاطِب:

لما كان الباحث في النص الشرعي لا يستطيع الانفلات من هيمنة المتكلم واستحضـــاره في ذهنه أثناء عملية الفهم،وذلك لأن متلقي الخطاب يبحث أساسا عن مقصود الشارع ومـــراده،[35] اهتم العلماء بهذا الجانب وأكدوا على ضرورة استحضار حاله باعتباره قرينـــة مكملـــة لظـــاهر النص،[36] بل ونجد أن القاضي عبد الجبار وغيره[37] يشير إلى أهمية معرفة حال الملقي لا على أنـــه قرينة لفهم الخطاب فحسب، بل على أنه قرينة لقبوله أو رده، فهو يصرح بأن صحة القـــرآن لا تعلم إلا بمعرفة الباري تعالى، وذلك لأننا لا نعلم من صيغة الخبر أنه صدق أو كذب ما لم نعلـــم بحال المخبر، فالعلم بصحة خطابه تعالى" يفتقر إلى العلم بأنه لا يختار القبيح، والعلم بأنه لا يفعل ذلك يتعلق بصفاته الذاتية ومفارقتها لصفة الفعل، ولابد أن تقدم معرفة ذلك ليصح من بعـــد أن يعرف أن كلامه عز وجل صحيح وأن الاحتجاج به ممكن"[38] كما يصرح من جهة دلالة القرآن الكريم على أن المعرفة بدلالته لا تعلم إلا بعد المعرفة بحاله سبحانه وتعالى،[39] وذلك لأن الكـــلام عنده لا تكمن دلالته في أمر يرجع إليه، وإنما تعرف بمعرفة حال قائله،[40] لذا كانت المعرفة بالذات العلية عن طريق المعرفة بصفاتها سواء تلك التي تحدث عنها القرآن الكريم، أو السنة النبويـــة، أو معرفتها عن طريق آثارها المتمثلة في إعجاز النظم القرآني من جهة، والكون ونظامه مـــن جهـــة

(35) ـــ الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمادي، ص/153

(36) ـــ المعتمد في أصول الفقه، (ج2/ ص346)

(37) ـــ المنهج الأصولي في فقه الخطاب، إدريس حمادي، ص/ 65

(38) ـــ متشابه القرآن، القاضي عبد الجبار، (ج1/ ص1)

(39) ـــ المصدر نفسه، (ج1/ ص2)

(40) ـــ المنهج الأصولي في فقه الخطاب، إدريس حمادي، ص/ 65

أخرى أمرا ضروريا لمعرفة مقصود الشارع الحكيم، لا عند القاضي عبد الجبار فحسب بل عند كل من اشتغل بدراسة النص القرآني،[41] إذ بمعرفة حال المخاطب يعرف أنه يقصد من اللفظ ما يقتضيه ظاهره إن تجرد عن القرائن، أو ما يقتضيه مع قرينة إن وجدت معه.[42]

فبمعرفة أن الله سبحانه وتعالى عليم لا يخفى عليه شيء، يتبين أن التردد الوارد في قوله:

﴿ **وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾ (الصافات147)، لا يقصد منه قطعا الشك في العدد، وإنما المراد منه إما تنزيل الخطاب على قدر أحوال المخاطبين وأن التقدير في ذلك وأرسلناه إلى فئة لو رأيتموهم لقلتم مائة ألف أو يزيدون، أو أن القصد منه الجمع، أي "مائة ألف ويزيدون".على اختلاف في ذلك[43]

كما أن في معرفة أنه تعالى لا يرسل رسلا غير متأكدين من صدق رسالتهم، أو يخالجهم شك فيها، بيان بأن الشك الذي قد يبدو من قول نوح لقومه: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾ (هود28) إنما جاء اعتبارا بحال المخاطبين، فهو "متيقن أنه على بينة من معرفة الله وتوحيده، وما يجب له وما يمتنع عليه، ولكنه أبرزه على سبيل العرض لهم والاستدراج للإقرار بالحق ، وقيام الحجة على الخصم.."[44]

وفي معرفة أنه تعالى لا يقر على باطل دليل استدل به الصحابة رضوان الله عليهم على إذن الشارع وإباحته للأفعال التي لم ينكرها عليهم زمن التشريع، وذلك لأنه سبحانه لا يقر على باطل حتى يبينه.[45]

---

[41] ــ الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمادي، ص/ 153

[42] ــ المحصول، أبو بكر الرازي، (ج6/ ص31)

[43] ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج9، ج، ص180،179)، بتصرف

[44] ــ البحر المحيط، أبو حيان،(ج6/ ص142)

[45] ــ أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم الجوزية، (ج1/ ص167، 168)

دفع الدور الفعال الذي يلعبه استحضار حال المخاطب أثناء عمليـــة الفهـــم، علمـــاء الأصول إلى تأسيس مجموعة من القواعد اعتمادا على هذا الأصل، من بين هذه القواعد تعاملهم مع الأمر بناءً على قائله، فإن خاطب به المرء من هو مثله أو دونه فهو أمر، وإذا خاطب به من هو أعلى منه لا يكون كذلك، بل يكون سؤالا ودعاءا، لأن الأمر يتعلق بالمأمور.[46]

ثالثا) ـــ حال المُخَاطَب:

إن الفرض الأساس الذي ينطلق منه أي باحث في النص الشرعي، هو أنه ما أنـــزل إلا لقصد إفهامه للمُخَاطَب، لذا لم يتصور الأصوليون وجود خطاب في غيابه،[47] بل و لم يتصـــوروا تعريفا للخطاب ما لم يراعي فيه المتكلم حال السامع، فالكلام الذي لا يقصد منه الملقي إفهام من وجه له لا يعد كلاما، كما أنه لا يعد كذلك ما لم يوجه لمن هو متهيئ لتلقيه،[48] ولـــئن كـــان الأصوليون قد ركزوا على ضرورة حضور المُخَاطَب أو استحضاره أثناء عملية التخاطـــب، إلا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد[49] بل عمدوا إلى ضبط شخصيته بشروط تتمثل في العقل والاستطاعة، وذلك لأنهم رأوا أن السامع لا يكون مؤهلا لتلقي النص الشرعي وأداء ما يتضمنه على وجهـــه المشروع إلا بقدرتين: قدرة فهم الخطاب وتتمثل في العقل، وقدرة العمل به وتكمن في البدن،[50] هذا ولا يقصد ممّا سبق ذكره حصر مفهوم تهيئ المتلقي لفهم الخطاب في خلوه مـــن عـــوارض

---

(46) ـــ أصول، السرخسي،أبو بكر السرخسي، (ج1/ ص11)

(47) ـــ ناقش الأصوليون غياب المخاطب على مستويين: الأول غيابه في الأزل لمن عرف الخطاب بأنه الخطاب النفسي القديم، الثاني: اقتصار الخطاب على الذين عاصروا زمن النزول، بالنسبة لمن عرفه بالكلام الملفوظ، أنظر:المنهج الأصولي في فقه الخطاب، إدريس حمادي، ص/72

(48) ـــ أنظر الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، (ج1/ ص136)، التقرير والتحبير(ج2/ص100)

(49) ـــ المنهج الأصولي قي فقه الخطاب، إدريس حمادي، ص/ 72

(50) ـــ الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمادي، ص/ 158

الأهلية،[51] بل المعنى أكبر من ذلك، فأحوال المخاطبين تتنوع بتنوع المكان والزمان والأشخاص، فالمتلقي قد يكون صحيحا معافى، وقد يكون مريضا أو مسافرا، وهو أحيانا قريب مـــن المـــتكلم قابل لأرائه، وأخرى بعيد عنه رافض لكل ما قد يصدر عنه، كما أنه قد يكون شخصا بارزا ذا مكانة اجتماعية أو شخصا بسيطا أو سوقيا، فكل حال من هذه الأحوال تقتضي أن يرد الكـــلام وفق مقتضاها، لذا اعتبر العلماء مراعاة أحوال السامعين حدا من حدود البلاغة،[52]

ولما كان القرآن الكريم أبلغ الكلام وأفصحه، إذ عجزت العرب عن معارضته مـــع طول باعها في الفصاحة والبلاغة وكذا عجزت الأجيال من بعدهم،[53] كان من مظاهر الإعجاز فيه مراعاة أحوال المكلفين، وذلك لأن الكتاب نزل في مجتمع جاهلي ترسخت فيه مجموعة مـــن المعتقدات الباطلة والعادات الفاسدة، كما أنهم كانوا قوما لم يسبق لهم عهد بتعلـــيم أو تشـــريع فجاء القرآن بأسلوب مناسب لجميع هذه الأحوال، حيث عمد إلى استخدام أســـلوب الـــدعوة والموعظة بما يتوافق وأساليب الخطابة المعروفة لديهم، وحاول من خلال هذا المنهج إبطال شركهم وضلالهم وإثبات وحدانيته تعالى وتفرده بالخلق، كما بين من خلاله الأحكـــام الشـــرعية، لـــذا جاءت هذه الأحكام موزعة على حسب ما اقتضته مقامات الموعظة والدعوة، ليخف تلقيه علـــى السامعين ويعتادوا على علم لم يألفوه بأسلوب قد عرفوه. [54]

إن مراعاة اختلاف أحوال المخاطبين زمن التشريع جعلت من القـــرآن الكـــريم يمتـــاز بمجموعة من الخصائص بينها العلماء في العديد من المواضع وأظهروا مواطن الإعجاز فيها، مـــن ذلك ما ذكر من اختلاف أسلوب الخطاب في النص القرآني بين المكي والمدني، وما وجد ذلـــك

---

(51) ــــ عوارض الأهلية عل نوعين: سَمَاوِيَّةٌ أَيْ لَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيهَا اخْتِيَارٌ وَهِيَ أَحَدَ عَشَرَ الصِّغَرُ وَالْجُنُونُ وَالْعَتَـــهُ وَالنِّسْـــيَانُ وَالنَّوْمُ وَالْإِغْمَاءُ وَالرِّقُّ وَالْمَرَضُ وَالْحَيْضُ وَالنِّفَاسُ وَالْمَوْتُ، وَمُكْتَسَبَةٌ أَيْ كَسَبَهَا الْعَبْدُ أَوْ تَرَكَ إزَالَتَهَا، وَهِيَ سَبْعَةٌ سِـــتَّةٌ مِنْـــهُ، وَهِيَ الْجَهْلُ وَالسَّفَهُ وَالسُّكْرُ وَالْهَزْلُ وَالْخَطَأُ وَالسَّفَرُ وَوَاحِدٌ مِنْ غَيْرِهِ وَهُوَ الْإِكْرَاهُ.أنظر: التقرير والتحبير، (ج2/ ص223)

(52) ــــ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، (ج1/ ص80)

(53) ــــ دراسات قرآنية، عبد السلام الشريف، ص/30

(54) ــــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج2، ج3، ص157)، بتصرف

الخلاف إلا لاختلاف المجتمعين،[55] كما أن التدرج في التشريع والذي يعد بحـــق خاصـــية مـــن خصائص الإعجاز في الكتاب العزيز، ما هو إلا مظهرا من مظاهر مراعاة أحوال السامعين، إذ لو كلف هذا المجتمع دفعة واحدة بجميع التشريعات، لما دخل أحد للإسلام أو لما بقي أحـــد علـــى إسلامه.

رابعا) ــ الظروف المحيطة بالخطاب:

رغم الأهمية البالغة التي تلعبها العناصر السابقة في بيان النص المراد تفسيره، يمكن القول أنه لا يمكن الوصول إلى المقصد الحقيقي للمتكلم ما لم تعرف الظروف والملابسات التي ألقي فيها هذا الخطاب، وذلك لما لهذه الظروف من أهمية كبيرة في فهم المعنى والكشف عن الدلالة،[56] إذ الكلام الواحد من نفس المخاطب لنفس السامع قد يكتسي مجموعة من المعاني لا يمكن تحديدها ما لم تراعى الظروف التي ألقي فيها هذا الكلام،[57] فلو قلت مثلا "مكة ورب الكعبة" عرية عن أي قرينة تبين مرادك، لكان في ذلك إبهام للسامع بحيث يصعب عليه تحديد المعنى المقصود من هـــذا القول،أما لو قلت القول نفسه إذا رأيت رجلا متوجها وجهة الحجاج في هيئة الحـــاج، لفهـــم المقابل أنك تقصد بالقول " يريد مكة ورب الكعبة"،[58] وكذا لا يمكن فهم مقصود الرجل مـــن قوله لزوجته " أهلا بالجميلة" بصورة دقيقة ما لم تعرف طبيعة العلاقة التي تربط بينه وبين هـــذه الزوجة، فقد تقال هذه الجملة في مقام الغزل، أو في مقام التوبيخ، أو في مقام التعـــيير بالدمامـــة، "وكل هذا لا يعرف بالوقوف على المعنى المعجمي لكلمتي أهلا والجميلة، ولا بـــالمعنى الـــوظيفي لهما، وللباء الرابطة بينهما"، وإنما يمكن أن يفهم ذلك من خلال الوقوف على الظرف الذي أحاط بالخطاب ساعة إنتاجه.[59]

---

[55] ــ مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني (ج1/ ص193)، بتصرف

[56] ــ أنظر الموافقات، الشاطبي، (مج2، ج3، ص241)، بتصرف

[57] ــ التأويل اللغوي في القرآن الكريم، حسن حامد الصالح، ص/ 129

[58] ــ الكتاب، سبويه، (ج1/ ص257)

[59] ــ اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص/ 342

إن الأهمية الكبيرة التي تلعبها ملابسات الخطاب وظروفه على مستوى تفسير النصوص وبيانها، جعلت من علماء الشريعة يهتمون بكل ما أحاط بالنص القرآني بدءا من ثبوته وضبطه، إلى بيان أنواعه، وأسباب نزوله، وقراءاته، وغير ذلك ممّا أطلق عليه العلماء مصطلح "علوم القرآن" بل وقد جعله العديد من المفسرين مقدمة بدءوا بها تفاسيرهم، وما كان ذلك إلا إدراكا منهم لأهمية هذا العلم وتأثيره في التفسير، لذا رأوا أنه لا ينبغي لمن ليس له حظ من هذا العلم أن يتقدم لتفسير القرآن الكريم.(60)

ويمكن القول أن معرفة ما يحيط بالكلام من ظروف سواء كانت هذه الظروف مباشرة أو غير مباشرة وسيلة من أهم وسائل الكشف عن المقام وبيان المراد بالخطاب، وهو ما يتناوله المبحث التالي:

المبحث الثاني: طرق الكشف عن المقام

ويقصد بطرق الكشف عن المقام، الكيفية التي يتوصل بها الناظر في النص الشرعي إلى معرفة المقام الذي نزل فيه الخطاب، وتتنوع هذه الكيفية بحسب تنوع النصوص فقد يعرف المجتهد مقام الخطاب من مجرد النص دون الحاجة إلى الاستعانة بعوامل أخرى لبيانه، وقد يحتاج في ذلك إلى توظيف مسائل مساعدة لتحقيق هذا القصد، ومن بين الطرق التي يمكنها الكشف عن المقام مايلي:

المطلب الأول: أثر السياق في الكشف عن المقام:

والمقصود بالسياق، السياق اللغوي، أي الجمل المكونة والسابقة واللاحقة للخطاب المراد تفسيره وبيان مقامه، كما يقصد به السياق بمفهومه العام، فالنص القرآني لا يمكن تحديد معناه بشكل صحيح وواضح إذا ما أخذناه مبتورا عن باقي النصوص الواردة في السياق، سواء كان بمعناه الخاص، أي الجمل السابقة واللاحقة له، أو بمعناه العام، أي النصوص التي لها علاقة ما

(60) ـــ المنهج الأصولي في فقه الخطاب، إدريس حمادي، ص/ 76

بهذا النص، مع أنها قد وردت في مواضع وأزمنة أخرى مختلفة عمّا ورد فيه، ففي استحضار هذه النصوص عون على فهم النص وبيان مقامه.[61]

أولا) ــ مراعاة السياق بمفهومه الخاص:

أولى العلماء هذا النوع من السياق أهمية بالغة لكونه " يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته"[62] فكل صفة تقع في سياق المدح تكون مدحا، وكل صفة تقع في ساق الذم تكون ذما، وحتى ما كان مدحا بالوضع إن وقع في سياق الذم صار ذما، واستهزاءا، وتهكما، والعكس كذلك، ويعرف ذلك بحسب الاستعمال،[63] فلو نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿ **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** ﴾ (الدخان 49)، مبتورة عن السياق الذي وردت فيه، لما تبين لنا أن المقام مقام استهزاء وتهكم، بل قد يبدو منه أنه مقام تشريف وثناء، إلا أنه بالرجوع إلى السياق والنظر في النص نظرة كلية يراعى فيها أول الكلام وآخره ، نجد أن دالته المباشرة قد تغيرت إلى الضد، وهو ما لا يجوز ــ في قواعد اللغة ــ ما لم تكن هنالك قرينة دالة عليه، فاعتبر السياق هنا القرينة،[64] وقد اكتسى من القوة ما يكفي لتغيير الدلالة كليا على هذا النحو، وهي دلالة لا تحتملها هذه الألفاظ بمعانيها المعجمية، فالعزة لا تدل على الذل، والكرامة لا تدل على الحقارة، إلا أنه بمجيء هذه الآية بعد آيات وردت في بيان أحوال يوم القيامة وما يعد للكافرين من عذاب، وقبلها وردت آيات في ذم فرعون والإنكار عليه ما كان فيه من كفر وجحود، تبين أن المقام مقام استهزاء وتهكم.[65]

---

(61) ــ طرق الكشف عن مقاصد الشارع، نعمان جعيم، ص/ 97

(62) بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية،(ج2/ ص301)،أنظر:البر هان في علوم القرآن، برهان الدين الزركشي، (ج2/ص218)

(63) ــ الإمام في بيان أدلة الأحكام، عبد العزيز ابن عبد السلام،ص/ 159

(64) ــ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى محمد العوا، ص/ 70

(65) ــ المرجع نفسه، ص/ 70

ومن هنا يؤكد الشاطبي على ضرورة مراعاة السياق والنظر إلى النصوص نظرة كلية غير متجزأة ، وذلك لأن "..المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل وهذا معلــوم في علم المعاني والبيان، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم، والالتفــات إلى أول الكــلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، فلا ينظر إلى أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض، لأنها قضية واحــدة نازلــة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم من رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل إلى مراده....".[66]

إن الناظر إلى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ** ﴾ (الأنعام135) يلاحظ أن هذا القول يتضمن أمرا منه تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بأن يــأمر قومــه بالعمل على مكانتهم، والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه فأنا ثابت ، فالمقام إذا مقام أمر، هذا لمن نظر إلى النص خارج السياق الذي ورد فيه، أما بالرجوع إلى السياق، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ (الأنعام134) يدرك أن هذا الأمر لا يتوافق مع مقصــد الشــارع الحكيم، إذ كيف يأمر المشركين على البقاء على ما هم عليه من الكفر في الوقت الذي يــدعوهم فيه للإيمان ويستخدم مختلف الوسائل لذلك، ومن هنا يتبين أن المقام هنا مقام تهديــد ووعيــد، وذلك "ليملي لهم في ضلالهم إملاء يشعر بأن المأمور به مما يزيد المأمور اســتحقاقا للعقــاب"[67] ويؤكد قصد التهديد قوله تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الــدَّارِ إِنَّــهُ لا يُفْلِــحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (الأنعام 135) أي معرفة العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها.[68]

إن مراعاة السياق أمر ضروري لبيان المقام في الجملة، كما أنه يمكن أن يكون مرجحا في حالة ما إذا دار النص بين مقامين وصعب تحديد أيهما أولى بالاعتبار، وفي ذلك يقول العز بن عبد السلام:" إذا احتمل الكلام معنيين وكان أحدهما أوضح أشد موافقة للسياق كان الحمل عليــه

[66] ـــ الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، (مج2، ج3، ص،287)

([67]) ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج4، ج8، ج، ص92)، بتصرف

([68]) ـــ المرجع نفسه، (مج4، ج8، ص92)

أولى"[69] فمن قواعد الترجيح أن يشهد بصحة القول سياق الكلام ويدل عليه مـا قبلـه ومـا بعده.[70]

إنطلاقا من هذه القاعدة ذهب الطاهر بن عاشور[71] على غرار العديد من المفسـرين،[72] إلى أن المقام في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَـالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ** ﴾ (الأنعام 76) مقام جدال ومناظرة وليس مقام نظر واستدلال، وذلك لأن هذه الآية قد عطفت على جمل اشتملت على حجج ومجادلات في شأن إثبـات التوحيـد وإبطـال الشرك، لتشكل بذلك شاهدا من أحوال الأنبياء بذكر مجادلة أول رسول أعلن التوحيد ونـاظر في إبطال الشرك بالحجة الدامغة والمناظرة الساطعة، كونها أعدل حجة في تاريخ الدين إذ كانـت مجادلة رسول لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حجة على المشركين العرب لأن أباهم لم يكن مشركا ولا مقرا للشرك في قومه، وبالرغم من أن هناك من ذهب إلى أن هذه الآية قد جـاءت لبيـان الطريقة التي اهتدى بها إبراهيم عليه السلام بحيث توصل من خلال هذا التـدرج في النظـر إلى معرفة المعبود والتيقن من وجوده، وهذا ما ذهب إليه الطبري،[73] إلا أن المتمعن في هذه الآيـة والناظر في السياق الذي جاءت فيه يمكن أن يتبين له بأن الآية في مقام المناظرة لا النظر، وذلـك من وجوه أولها: أن الآية عطفت كما أسلفت الذكر على آيات اشـتملت علـى اسـتدلالات وحجج لرد ادعاءات المشركين وتكذيبهم، فناسب هذا المقام ذكر بيان الطرق التي استدل بهـا الرسل السابقون على التوحيد وإثبات الرسالة، ولأن سيدنا إبراهيم هو أبـو العـرب ورسـالته معروفة لديهم ولا يستطيعون نكرانها كان ذكره في هذا المقام أنسب، كما أن ظاهر السياق يمكن أن يتبين من خلاله وجود حوار ومناظرة، ففي قوله تعالى: ﴿ **قَالَ هَذَا رَبِّي** ﴾ يظهر منـه أنـه

(69) ــ الإشارة إلى الإيجاز في أنواع المجاز، عبد العزيز ابن عبد السلام، ص/ 220

(70) ــ التسهيل في علوم التنزيل، ابن جزي، ص/ 21

(71) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (مج3، ج، ص391)

(72) ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج3/ ص291)،أنظر: أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي،(ج2/ ص 180)، مواهب الجليل من تفسير البيضاوي،"أنوار التنزيل وأسرار التأويل"محمد أحمد كنعان، ص/174

(73) ــ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (7/ ص164)

خاطب بذلك غيره،"لأن القول حقيقة في الكلام، وإنما يساق الكلام على مخاطب"،[74] ولـــذلك كانت حقيقة القول هي ظاهر الآية، من لفظها ومن ترتيب نظمها، إذ رتبت قوله : ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ** ﴾ على قوله: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾وقوله: ﴿ **وَلِيَكُونَ مِـــنَ الْمُوقِنِينَ**﴾(الأنعام 75) ورتبت ذلك كله على قوله:﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْـــرَاهِيمُ لِأَبِيـــهِ آزَرَ أَتَتَّخِـــذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ (الأنعام 74) ليتم ذلك بقوله: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ (الأنعام78) ففي كل ذلك إشعار بوجود خطاب دار بينه وبين قومـــه، حيث استخدم معهم أسلوب الاستدراج للوصول إلى نفي معتقدهم وبيان ظلالهم، وذلك بقوله عن الكوكب أنه ربه، ثم القمر، ثم الشمس، ليصل بهم إلى الاعتراف بالوحدانية، حيث أبقـــى على أحد معبوداتهم وفرض استحقاقه الإلهية كيلا ينفروا من الإصغاء إلى استدلاله، كما أن في اقتصاره على إبطال كون هذه الكواكب آلهة واستدلاله على براءته مما يشركون مع كونـــه لا يلزم من بطلان إلهية الكواكب بطلان إلهية أجرام أخرى، دليل على أن إبراهيم قام بذلك لإبطال ما اعتقده قومه من آلهة، وما قال ذلك إلا على سبيل الاستدراج.[75]

هذا وتجدر الإشارة إلى أن معرفة المقام لا تقتصر على النظر في السياق بمفهومه الخاص، بل ويدخل في ذلك أيضا:

ثانيا) ـــ مراعاة السياق العام للنصوص.

مسألة نبه على أهميتها العديد من العلماء وأكدوا على ضرورة مراعاتها لكل مـــن أراد التصدي لتفسير القرآن الكريم، يقول الزركشي:" أحسن طريقة التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فقد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فإنه قد بسط في آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن موضحة له، .... فإن لم يوجد في السنة يرجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن، ..." [76] فهذه النصوص الثلاثـــة، القـــرآن، السنة، وقول الصحابي، تعتبر بمثابة سياق عام يمكن للمفسر أن يستدل به للكشف عن المقام.[77]

---

(74) ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج3، ج، ص391)

(75) ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،(مج3، ج7، ص319إلى 325)، بتصرف

(76) ـــ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، (ج2/ ص192)

إن أول من سن مسألة الرجوع إلى السياق العام للقرآن الكريم ورد بعضه إلى بعـــض الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم،[78] حيث فسر قوله تعالى:﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ** ﴾ (الأنعام 82) لما شق ذلك على أصحابه بأن المقصود بالظلم في الآية الشرك، فقـــال:" ليس كما تظنون ولكنه الشرك أما قرأتم قول العبد الصالح" إن الشرك لظلم عظيم".[79]

ويدخل في هذا السياق أيضا تتبع عادات القرآن الكريم وكلماته في مواردهـــا، فـــذلك أحرى أن يبين للمفسر حقيقة المعنى ويكشف له عن نوع المقام، لذا أكد الطاهر بن عاشور على أهمية هذا العلم في مقدمة تفسيره حيث قال:".. يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن مـــن نظمه وكلمه." [80] وقد ذكر بعض ما تعرض له السلف في هذا المقام، ومن ذلك ما رواه الطبري عن الضحاك بن مزاحم أنه قال بأن كل كأس في القرآن الكريم فالمراد بها الخمر،[81] وقد روي مثله عن ابن عباس وبه قال الأخفش،[82] وعن ابن عباس أيضا، أن كل ما جاء مـــن" يـــا أيهـــا الناس" فالمقصود به مشركي أهل مكة،[83] و عن ابن عيينة أنه قال:" ما سمى الله مطرا في القرآن إلا عذابا،"[84] وذكر الزمخشري وفخر الدين الرازي، أن من معهود القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا

---

(77) ــ الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى محمد العوا، ص/ 72

(78) ــ كيف نتعامل مع القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، ص/ 255

(79) ــ أخرجه البخاري، ك:التفسير، باب: لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم،(مج3، ج5، ص318، رقم:4776)، مسلم، ك: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، (مج1، ج2، ص143، رقم: 124)

(80) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، المقدمة التاسعة، (مج1، ج1، ص124)

(81) ــ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (مج10، ج23، ص34)

(82) ــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج13، ج26، ص127)، أنظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج9، ج23، ص110، 112)

(83) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، المقدمة التاسعة، (مج1،ج1، ص124)

(84) ــ صحيح البخاري، ك: تفسير القرآن ، باب: {إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، (مج3، ج5، ص241)

أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة، ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد، هذا وقد بين الطاهر بن عاشور عادات كثيرة للقرآن الكريم في مواضع عديدة من تفسيره من بينها، عادته في إرداف الترغيب بالترهيب والعكس كذلك،[85] وعادته في تعقيب القصص والأمثال بالتنبيه إلى مواعظها ومغازيها،[86]

كما أن المتتبع للقرآن الكريم يمكن أن يلاحظ أن الأوامر الصادرة من الشارع الحكيم وهو لا يقصد وقوعها بحيث تتنافى مع حكم التشريع، مثل قوله: ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ**﴾ (الأنعام 135) هي أوامر لا غ يقصد منها ظاهرها، بل المقام فيها مقام استهزاء وهكم، كما أن أوامره تعالى للمشركين أو أهل الكتاب بالإتيان بأعمال يعلم أنهم غير قادرين عليها، نحو قوله : ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ** ﴾ (البقرة23)، أو أنهم لن يقوموا بها نحو قوله: ﴿**فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ فالمقام فيها مقام تحدي وتعجيز.

ومن هنا يمكن القول أن للنظرة الكلية للنصوص أهمية بالغة في بيان المقام والكشف عن مقصود الشارع، فأفضل قرينة تقوم على حقيقة المعنى موافقته لما سبق من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته.

(85) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج4، ج9، ص344)

(86) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج9، ج23، ص121)

المطلب الثاني: أثر عادات العرب في الكشف عن المقام:

من المبادئ المستقر عليها عند كل من له دراية بعلم اللغة، أن الكلام لا يمكن أن يكتسي صفة البلاغة وحسن السبك، هذا فضلا على أنه لا يمكن أن يؤدي المقصود منه، ما لم يراعي فيه المخاطب حالة السامع ومعارفه، ولما كان القرآن الكريم الكلام الوحيد الذي خاطب عقل السامع وقلبه معا، قد جاء ت نصوصه مراعية لهذا الجانب، بل وتعد مراعاة أحوال المخاطبين وعاداتهم مظهرا من مظاهر الإعجاز فيه، وذلك لأن القرآن قد نزل بلغة العرب، لغة يعرفونها ويمتلكون جميع أدواتها، كما أنه قد خاطبهم وفق ذهنيا تهم والمعارف التي يعرفونها، فثبت الإعجاز وثبت التحدي.قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (فصلت3)

إن في معرفة البيئة التي نزل بها القرآن الكريم أثر فعال في فهم مقاصده وبيان مقاماته، وحتى يتسنى للباحث الكشف عن ذلك، يجب عليه أن ينظر في عادات العرب من وجهين، عادات العرب اللغوية, وعاداتهم الحياتية أو الاجتماعية.

أولا) ــ أثر عادات العرب اللغوية:

لقد أكد المفسرون والفقهاء والأصوليون على ضرورة فهم الخطاب الشرعي في ضوء ما عهدته العرب في لسانها أيام التشريع،وامتدوا بهذا المعهود إلى ما قبل الإسلام وبعده، حتى نهاية عصر الاستشهاد اللغوي،[87] وذلك لأن الشارع الحكيم قد خاطب العرب بلغتها على ما تعرف من معاني، وكان مما تعرف من هذه المعاني اتساع لسانها، وأنّ من فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا ويريد[88] به العام الظاهر، كما قد يخاطب بالعام الظاهر ويريد به العام ويدخله الخاص ، فيستثنى من هذا بعض من خوطب به، وقد يكون عاما ظاهرا ويراد به الخاص، وظاهرا يعرف من السياق الذي ورد فيه أنه غير مراد، ومن عادة العرب في كلامها أيضا أنها تبتدأ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله، وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تعرفه بالإشارة،

(87) ــ مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية،" معهود العرب في تلقي الخطاب" أحمد شيخ عبد السلام ص/ 74

(88) ــ الرسالة، محمد ابن إدريس الشافعي، ص/ 67

ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها، وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة، وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة،[89] كل هذا معروف عند أهل العربية ولا يرتاب في شيء منه، ولا يستنكر ذلك إلا من جهل بلسانها[90] ومن ذلك أنها تقول القول ولا تقصد معناه، فقد يأتي الكلام بصيغة الدعاء والمراد به التعجب، ويأتي بصيغة الأمر ومراده الإرشاد، كما يقال:" قاتله الله ما أحسن ما قال !" للرجل إذا أصاب في منطقه، أو شعره، أو "لا أم له أو ثكلته أمه"، والقصد منه الإعجاب بموقف من المواقف التي قام بها،[91] ومن ذلك قول كعب بن سعد:

هوت أمّه ما يبعث الصبح عاديا *** وماذا يؤدي الليل من يؤوب[92]

لذلك لم يحمل قوله صلى الله عليه وسلم :" تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك"[93] عند الكثير من أهل العلم على الدعاء وإن كان أصل القول ـــ تربت يداك ـــ التصقتا بالتراب من الفقر،بل حمل على أنه قد خرج مخرج ما يعتاد العرب في مخاطباتهم،[94] وذهب الزهري إلى القول بأخذه على ظاهره،[95] أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قصد منه الدعاء، لأن ذلك يتناسب مع طبيعة الرجل. ويمكن الاعتراض على هذا الرأي من وجهين:

---

(89) ــ المصدر السابق، ص/67

(90) ــ الموافقات، أبو إسحاق الشاطي،، (مج1، ج2، ص306)

(91) ــ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص/ 277،276

(92) ــ الأصمعيات، عبد الملك بن قريب الأصمعي، ص/95، أنظر: ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، (ج2/ ص971)

(93) ــ أخرجه البخاري،ك: النكاح، باب الأكفاء في الدين، (مج3، ج6، 445، رقم: 5090)، مسلم،الرضاع باب: استحباب نكاح ذات الدين، (مج5، ج10، ص55، رقم: 1466)

(94) ــ سبل السلام، الصنعاني، (ج3/ ص112)

(95) ــ الإبهاج في شرح المنهاج، تاج الدين السبكي، (ج1/ ص303)

الأول: أن الدعاء بالفقر وإن كان مناسبا لطبيعة الشخص لا يتناسب مع المقام، إذ المقام مقام ترغيب في نكاح ذات الدين، والدعاء بالفقر مما تنفر منه الطباع، فلا يناسب في مقام الترغيب ذكر شيء ينفر منه الطبع وإن كان ملائما.

الثاني: أن قول "تربيت يداك"، ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في مقامات ومواضع أخرى، منها قوله لأم سليم لما سألته عن احتلام المرأة والغسل منه،" تربت يداك فبما يشبهها ولدها"[96] وقوله للسيد عائشة رضي الله عنها لما احتجبت من أفلح بن أبي قيس ومنعته من الدخول عليها،" تربت يداك أو يمينك"[97] فكل ذلك مما اعتادته العرب في مخاطباتها" فقد يوحش اللفظ وكله ود، ويكره الشيء وليس منه بد، هذه العرب تقول لا أب لك للشيء إذ أهم، وقاتله ولا يريدون به الذم، وويل أمه للأمر إذا تم، وللألباب من هذا الباب أن ينظروا إلى القول وقائله، فإن كان وليا فهو الولاء وإن خشن، وإن كان عدوا فهو البلاء وإن كان حسن"[98]

إن علاقة العداء التي كانت بين شعيب وقومه تؤكد أنه لا يمكن أن يعتبر المقام في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾ (هود87) مقام ثناء ومدح لشعيب، إذ كيف يصفه قومه بهذه الأوصاف مع أنهم يكذبون دعوته ويصدونه، فهذه العلاقة تبين بوضوح أن مقصود قومه خلاف قولهم، وأنهم ما أوردوا ذلك إلا على سبيل الاستهزاء والتهكم، كما يقال

---

(96) ــ أخرجه البخاري،ك: العلم، باب الحياء في العلم، (مج1، ج1، ص51، رقم: 130)، مسلم واللفظ له،ك: الحيض، باب: وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، (مج2، ج3، ص224، رقم: 313)

(97) ــ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ :" إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي الْقُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ بَعْدَ مَا نَزَلَ الْحِجَابُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا آذَنُ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ أَخَا أَبِي الْقُعَيْسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةُ أَبِي الْقُعَيْسِ فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَتُهُ قَالَ ائْذَنِي لَهُ فَإِنَّهُ **عَمُّكِ تَرِبَتْ يَمِينُكِ** قَالَ عُرْوَةُ فَبِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ حَرِّمُوا مِنْ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ" أخرجه البخاري،ك: الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ترب يمينك، وعقرى حلقى، (مج4، ج7، ص142، 143، رقم:6156) مسلم، ك: الرضاع، باب:تحريم الرضاعة من ماء الفحل، (مج5،ج10، ص24، رقم:1445)

(98) ــ شرح الزرقاني،محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، (ج1/ 211، 212)

للبخيل لو رآك حاتم لاقتدى بك في سخائك، فالمقام إذا مقام استهزاء وتهكم، لا مقام مدح وثناء.[99]

ثانيا) ــ أثر عادا ت العرب الاجتماعية:

إن المتتبع للقرآن الكريم يجد أنه قد خاطب العرب بأشياء يعرفونها، مراعيا في ذلك أحوالهم وعوائدهم، وهذا ما يفسر ورود آيات كثيرة حول الأنعام والمواشي وما يجنى منها من فوائد ومنافع، وكذلك ذكر الماء والمراعي، كل ذلك بحفاوة كبيرة في مواضع عديدة، وأساليب متنوعة تنبئ عن مدى اهتمام العربي بهذه الثروة وحبه لها،[100] فإذا ما أراد تعالى أن يمتن عليهم بنعمه ذكرهم بهذا الفضل، وإذا ما أراد إرشادهم بالاستدلال على وجوده سبحانه وتعالى وعظمته، أمرهم بالنظر والتدبر في خلقه، هذا الخلق الذي لا يخرج عن كونه أشياءا محيطة بهم، متصلة بطبيعة حياتهم، ففي قوله تعالى: ﴿ **أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾ (الغاشية17إلى20) تنبيه للبدوي بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي اتجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه،[101] ففي كل ذلك إرشاد إلى النظر في عناصر مشاهدة ملموسة لا تحتاج إلى خيال أو إعمال عقل لإدراكها، قال الشاطبي:"...ومن ذلك معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل وإن لم يكن ثمّ سبب خاص، لابد لمن أراد الخوض في علم القرآن منه، وإلا وقع الشبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة،..."[102]

فالناظر في قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما**﴾ (البقرة219) بعيدا عن عادات العرب ونظرهم للخمر زمن

---

(99) ــ تفسير المراغي، مصطفى المراغي، (ج12/ ص72)

(100) ــ عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة، محمد عزة دروزة، ص/ 114

(101) ــ تفسير القرطبي، (ج20، ص36، 37)

(102) ــ الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، (مج2، ج3، ص243، 244)

التشريع، قد يتساءل عن نوع النفع الذي قد يجنى من الخمر حتى ترتقي لأن يذكرها الله تعالى في كتابه؟ لكن بمعرفته أن العرب كانوا يمتدحون شرب الخمر لا لأنها مفخرة في ذاتها، بل لأنها سبيل من سبل الكرم وبذل المال، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنب بالكرم وخمره ببنت الكرم، حتى أصبحت في دواوينهم بابا من أبواب المدح والفخر، كما أنهم كانوا يرون في الميسر سبيلا من سبل الكرم أيضا، إذ كانوا يطعمون المساكين ما يربحون أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين،[103] يتبين له وبوضوح مقصد الشارع من هذا النفع، ويزال عنده كل إشكال، إذ كل من الإنفاق والإطعام أمور محببة للشارع، لذلك نوه بفضلها، إلا أن هذا الفضل لا يقارن بالأضرار الناجمة عنها.

إن في معرفة عوائد العرب زمن التشريع فضلا على دفع ما قد يتوهم من إشكالات في ذهن السامع، أثرا فعالا في الكشف عن مقام الخطاب وبيانه، وذلك لأن المقام ما هو إلا نتيجة تفاعل مجموعة عناصر يراعى فيها حال المخاطب من جهة، وحال المخاطب وما يحيط بالكلام من ظروف، ففي الكشف عن هذه الظروف كشف عن هذا التفاعل، ومن الأمثلة التي يمكن أن تصلح لهذا المقام، قوله تعالى: ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾ (البقرة228) فالظاهر من الآية أنها جاءت في مقام الخبر، إذ الصيغة تدل على ذلك، فلفظة ــ يتربصن ــ ظاهرها الخبر، كما أننا إذا ما نظرنا إلى السياق الذي وردت فيه، قد لا يظهر منه إلا أنها جاءت مخبرة عن فعل كانت تفعله النساء في حالة الطلاق، هذا لمن لم يعرف عادة النساء زمن التنزيل، أما من عرف أحوال العرب في ذلك، وعلم بوجود مطلقات لا يتربصن بأنفسهنّ هذه القروء أولا يتربصن أصلا، "وخبر الباري لا يصح أن يقع بخلاف مخبره"،[104] تبين له أن المقام مقام أمر وتشريع لا مقام خبر، إذ المقصود من الآية أمر المطلقات بالتربص، وفي "إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه ممّا يتلقى بامتثاله فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص"[105] ويؤكد هذا الرأي ما روي عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت:"طلقت على عهد رسول الله صلى

[103] ــ الرحيق المختوم، المباركفوري، ص/ 38

[104] ــ الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمادي، ص/ 29

[105] ــ الكشاف، أبو القاسم الزمخشري، (ج1/ ص137)

الله عليه وسلم و لم يكن للمطلقة عدة فأنزل الله والمطلقات.." الآية،[106] ذهب إلي هذا القول أكثر العلماء، وذهب ابن العربي إلى أن المقصود من الآية الإخبار عن حكم الشرع، فإن وجدت مطلقة لا تتربص فليس من الشرع ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله تعالى خلاف مخبره[107]

ومن الأوامر التي يبدو منها ــ إذا ما نظر إليها بعيدا عن الظرف الذي وردت فيه ــ أنها أوامر جاءت في مقام الإرشاد، قوله تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (الأعراف31) فالأمر بأخذ الزينة مع اقترانه بالأمر بالأكل والشرب، قد لا يستفاد منه أكثر من الندب إن لم نقل الإباحة، هذا لمن جرد النص عند النظر عن ملابساته، أما من علم أن هذه الآية نزلت لإبطال عادة فاسدة كانت سائدة زمن الجاهلية،[108] حيث كان بعض الحجاج يطوفون بالبيت عراة، كما أنهم كانوا يحرِّمون على أنفسهم بعض الأطعمة، بدعوى أنها محرمة،[109] يتبيّن له أن المقام فيها مقام أمر وتشريع لا مقام إرشاد وتوجيه.

---

(106) ــ أخرجه أبو داود، كتاب الطلاق، باب: في عدة المطلقة، (مج1، ج2، ص285، رقم:2281)، والبيهقي بلإسناد أبي داود،(ج7/ ص670)، الحديث سكت عنه أبو داود، وقال المنذري:" في إسناده إسماعيل بن عياش وقد تكلم فيه غير واحد " أنظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، شمس الحق العظيم آبادي،(ج4/ 369)

(107) ــ أحكام القرآن، ابن العربي (ج1، ص539)

(108) ــ عن ابن عباس قال:"كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافا تجعله على فرجها وتقول اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله فنزلت هذه الآية، { خذوا زينتكم عند كل مسجد }، أخرجه مسلم، ك|: التفسير، باب" خذوا زينتكم عند كل مسجد" (مج9، ج18، ص138، 139،رقم:2798)

(109) ــ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (مج5، ج8، ص118)

المطلب الثالث: أثر أسباب النزول في الكشف عن المقام

كان العلماء المسلمون على وعي تام بالدور الفعال الذي يمكن أن تلعبه أسباب النزول، لذا نظروا لعلوم الشريعة على أنها وحدة متماسكة يخدم بعضها بعضا، فربطوا هذا العلم بالعلوم القريبة منه كالتفسير، والعلوم الأبعد كأصول الفقه، والفقه والفقه المقارن،[110] ورغم أن طبيعة هذا العلم النقلية جعلته قريبا من علم التاريخ إلا أنهم لم يروا فيه نوعا من السرد التاريخي العري عن الفائدة،[111] بل نبه جل من اشتغل بعلم التفسير على أهمية هذا الفن وأدرجوه ضمن القواعد التي وضعوها في مقدمات تفاسيرهم[112] قال السيوطي:" زعم زاعم أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ وأخطأ في ذلك بل له فوائد. منها: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم. ومنها: تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب. ومنها: أن اللفظ قد يكون عاماً ويقوم الدليل على تخصيصه، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ماعدا صورته، فإن دخول صورة السبب قطعي وإخراجها بالاجتهاد ممنوع، ......ومنها: الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال."[113] هذا ويمكن أن يضاف إلى ما تقدم من فوائد، دوره الفعال في الكشف عن مقام الخطاب، مسألة نبه عليها الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره حيث قال:" ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه، هذا ما بلغ إليه استقرائي..."[114] وقال عند بيانه لفوائد أسباب النزول:" ... ومنها ما ينبه المفسر إلى إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى

---

(110)ــ أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص، عماد الدين محمد الرشد، ص/ 41

(111)ــ أنظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي،(ج1/ ص22)، الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (ج1/ ص61)، مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني، (ج1/ ص103)

(112)ــ أنظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، المقدمة الخامسة، (مج1، ج1، ص46، 47، 48) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، (ج1/ ص32)

(113)ــ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (ج1/ ص61)

(114)ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، المقدمة الرابعة، (مج1، ج1، ص41)

المقامات، فإن من أسباب النزول ما يعين على تصوير مقام الكلام.."[115] وأكد الشاطبي قبله على أنه لا يمكن الوصول إلى فهم النص الشرعي على صورته الصحيحة بعيدا عن الظروف والملابسات التي قيل فيها، لذا اعتبر أن معرفة أسباب النزول هي معرفة مقتضى الحال الذي ورد في هذا النص.[116]

من الأمثلة التي يمكن أن تصلح لبيان هذا المقام قوله تعالى:﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا** ﴾ (البقرة158) إن الناظر في هذه الآية بعيدا عن سبب نزولها قد يظهر له منها أن المقام فيها مقام تخيير بين السعي وبين تركه، وهذا ما فهمه عروة بن الزبير فيما رواه عنه الإمام مالك أنه قال :" قلت لعائشة أم المؤمنين وأنا يومئذ حديث السن أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ فما على الرجل شيء أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: كلا لو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى..."[117] الآية، وما فهم عروة هذا الفهم إلا لأن الظاهر من قوله تعالى:﴿ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ**﴾ الإباحة بحيث يستوي الأمر بين الفعل وتركه، وهو مصيب من حيث اللغة، ولكن بمعرفة سبب النزول يتبين أن المقام غير ذلك، إذ المقام هنا مقام نفي للتحرج الذي حصل

---

(115) ـــ المرجع نفسه، المقدمة الخامسة، (مج1، ج1، ص47)

(116) ـــ يمكن القول أن الشاطبي يقصر مسمى المقام، أو مقتضى الحال في الظروف الخارجة عن المقال والتي لها أثر في بيان النص وتفسيره، أنظر: الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، (مج2، ج3، ص241)

(117) ـــ أخرجه البخاري، ك: العمرة، باب يفعل في العمرة مايفعل في الحج، (مج1، ج2، ص551، رقم: 1790)، مسلم،ك: الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، (مج5، ج9، ص23، رقم، 2240)، الإمام مالك في الموطأ، ك: الحج، باب، جامع السعي، (ص224، رقم: 828)

لبعض الصحابة نتيجة لبعض المعتقدات الراسخة لديهم، فجاء القرآن لإزالتها [118]، فسبب نزول هذه الآية بين أن المقام مغاير تماما لما هو ظاهر منها، كما أن بعض النصوص قد تأتي مبهمة بحيث يصعب على المفسر كشف مقامها ما لم تتدخل أسباب النزول في ذلك، منها قوله تعالى: ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** ﴾ (الدخان10)، ذكر بعض من لا علم له بسبب نزولها، بأن المقام فيها مقام ترهيب وتهديد بما أعده الله تعالى للمشركين يوم القيامة، لذا جاء رجل إلى ابن مسعود يخبره بأنه ترك رجلا في المسجد يفسر القرآن برأيه، قال: "يأتي الناس يوم القيامة دخان يأخذ بأنفاسهم كهيئة الزكام، فقال ابن مسعود من علم علما فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به الله أعلم، إنما كان هذا أن قريشا لما استعصت على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد وحتى أكلوا العظام .." [119] وبهذا يتبين أن المقام في الآية الكريمة، مقام إخبار عن الهيئة التي وصلت إليها قريش من شدة الجوع والقحط.

هذا وليس معنى أن أسباب النزول أساسية في تفسير النص والكشف عن مقامه، أن تظل حدود معانيه واقفة عند المستوى الدلالي الخاص بالواقعة الجزئية، ففي مثل هذا قصور وإهدار لطبيعة اللغة ونوعية النصوص،[120] إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرر عند جمهور العلماء، غير أنه في بعض الأحيان قد يحدث هذا العموم إشكالا في ذهن المجتهد أو المكلف بحيث يصعب عليه فهم النص بصورته الصحيحة، وهو ما حدث مع مروان ابن الحكم عند قراءته لقوله تعالى:﴿ **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ**﴾ (آل عمران188) فأرسل إلى ابن عباس يقول:" لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبنّ أجمعون" فأجابه ابن عباس

---

[118] ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور(مج1، ج2، ص217)،بتصرف

[119] ـــ أخرجه البخاري، ك: تفسير القرآن، باب: " يغشى الناس هذا عذاب أليم"(مج3، ج6، ص241، رقم:4861)، مسلم واللفظ له، ك: صفة القيامة والجنة، باب: الدخان، (مج9، ج17، ص138، 139،رقم:2798)

[120] ـــ مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، ص/ 108

بقوله:" وما لكم ولهذه إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم اليهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أنهم قد استحمدوا إليه بما أخبروه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم"[121] وليس معنى قول ابن عباس أن الآية نزلت في اليهود أنه قد جعل دلالتها دلالة خاصة بهم، بل القصد من وراء ذكر هذا السبب اكتشاف معاني النص بالعودة إلى سياقه العام، إذ يمكن القول أن الذم الوارد في هذه الآية واقع على الجمع بين الفرح بما يجنيه الإنسان من الباطل وبين حبه أن يحمد عليه،لقد كذبت اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم وحققوا من وراء هذا الكذب غايتين، الفرح بخداع رسول الله صلى الله عليه وسلم واكتساب الحمد على شيء لم يفعلوه في الحقيقة، فهذه الدلالة تحتاج بلا شك إلى سبب الترول لبيانها، ولكنها تظل دلالة عامة لا تخصص بالسبب الذي نزلت لأجله [122]

---

(121) ــ أخرجه البخاري، ك، تفسير القرآن، باب، " لا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا" (مج3، ج5، ص209، رقم: 4568)، مسلم، ك، صفات المنافقين وأحكامهم، (مج9، ج17، ص121، رقم: 2778)

(122) ــ مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، ص/109

المبحث الثالث: أثر المقام في فهم النصوص الشرعية

إن الحديث عن دور المقام وأهميته في هذا المبحث لا يعدو عن كونه تتمة لما سبق بيانه من مظاهر اهتمام العلماء[123] " بهذا العنصر الاستدلالي"[124] وقبل ذكر هذه الأهمية تجدر الإشارة إلى أن النص القرآني، هو نص لغوي في المقام الأول، لذا وجب التعامل معه وفق قواعد هذه اللغة وقوانينها،[125] وأن من خصائص هذه اللغة أنها خطابات تحمل معان متعددة سواء على مستوى مفرداتها، أو على مستوى تراكيبها،[126] فقد يدل الخطاب الواحد بالنسبة للمُخَاطَبِ أو لمجموعة المتلقين على وجهتين دلاليتين أو أكثر،[127] كما يشكل هذا النص تجسيدا لإرادة الشارع الحكيم من سوقه له، لذا اتجه نظر الأصولي لفقه النصوص الشرعية إلى ما هو ظاهر منها بحسب ما تدل عليه اللغة أولا،[128] ثمّ إلى البحث عن مقاصد الشارع من هذه الخطابات في حالة وجود قرينة صارفة عن هذا الظاهر،[129] وقد اعتبر المقام من القرائن الفعالة لتحقيق هذا القصد، ويمكن إبراز هذه الفعالية من عدة جوانب تضمنها هذا المبحث في مطلبين:

(123) ــ أنظر: أهمية المقام في دراسات السابقين، ص/10ــ 24 من هذا البحث

(124) ــ نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسيني، ص/ 327

(125) ــ طرق الكشف عن مقاصد الشارع، نعمان جعيم، ص/ 79

(126) ــ نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، ص/ 329

(127) ــ المرجع نفسه، ص/ 328

(128) ــ المنهج الأصولي في فقه الخطاب، إدريس حمادي، ص/79

(129) ــ طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص/ 62

المطلب الأول: أثر المقام في تفسير النصوص وبيان مقصود الشارع

يعتبر المقام أداة منهجية فعالة تساهم في بيان مقصود الشارع من الخطاب والكشف عن دلالته، وتظهر هذه الفعالية من عدة وجوه منها:

أولا) ــ تخصيص العام بقرينة المقام:

يعد المقام من القرائن المهمة التي استخدمها العلماء في بيان المدلول من صيغ العموم، وبيان ما إذا كان المراد من هذه الألفاظ ما وضعت له أصالة في وضع اللسان، أو أنها تحمل دلالة خاصة يقصدها المتكلم، أو جرى بها العرف اللغوي،[130] وذلك لأن "العرب تطلق ألفاظ العموم بحسب ما قصدت تعميمه، مما يدل عليه الكلام خاصة دون ما تدل عليه تلك الألفاظ بحسب الوضع الإفرادي، كما أنها أيضا تطلقها وتقصد بها تعميم ما تدل عليه في أصل الوضع، وكل ذلك ممّا يدل عليه مقتضى الحال"[131]

ويمكن أن يمثل لهذا المقام بقوله تعالى: ﴿ **قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (الأنعام145) فقد خصص الشافعي هذه الآية بالمقام الذي نزلت فيه، وذلك لأن العرب في تلك الفترة كانت تحكمهم أحكام ومعتقدات فاسدة تخالف مقاصد الشرع وتعارضها، فذكرت هذه الآية مسبوقة بذكر سجيتهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ...وكان الغرض من ذلك بيان ظلالهم وبطلان هذه المعتقدات، فالحصر الوارد في هذه الآية ــ حسب الشافعي ــ إنما سيق لغرض الرد على المشركين وتعجيزهم، وكأنه قال لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما حللتموه، لا بيان أنواع المحرمات.[132]

---

(130) ــ طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص/ 62

(131) ــ الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، (مج2، ج3، ص187)

(132) ــ البرهان في أصول الفقه أبو المعالي الجويني،(ج1/ ص255)

و قد اعتبر إمام الحرمين أن كلام الشافعي في غاية الحسن ولولاه لما استجاز مخالفة الإمام مالك في مصيره إلى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية، ثمّ أضاف على ما قاله الشافعي، أن القول بهذا الحصر يقتضي تحليل الحشرات والقاذورات وغير ذلك من النجاسات التي قطع السلف بتحريمها.[133]

من بين ما يمكن أن يرد على قول الجويني، أن الحشرات والقاذورات وغيرها ممّا استدل به لنفي الحصر ليست من الأمور التي يأكلها الناس أو تستسيغ الطباع تناولها، كما أن الحصر الوارد في هذه الآية جاء في مقام آخر مخالف تماما لهذا المقام وذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (البقرة173) فقد وردت هذه الآية في مقام امتنان على المؤمنين وبيان ما حُرِمَ عليهم لمعرفة ما أحل الله لهم من طيبات، قال الطاهر بن عاشور:" ولما كان القصر هنا حقيقيا لأن المخاطب به هم المؤمنون وهم لا يعتقدون خلاف ما يشرع لهم، لم يكن في هذا القصر قلب اعتقاد أحد وإنما حصل الرد به على المشركين بطريقة التعريض" [134] فابن عاشور اعتبر أن مقام الامتنان قرينة تؤكد إرادة الحصر في هذه الآية، وهي نفس الأداة الاستدلالية التي اعتمد عيها الشافعي وغيره في تخصيص هذا العموم.

ثانيا) ــ تعيين المحتمل وتحديد المعنى المراد

وذلك بأن يستعمل المقام للكشف عن المعنى وتحديد المراد من النص في حالة احتماله لعدد من المعاني، ويمكن أن يمثل لهذه المسألة بقوله تعالى:: ﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّه**﴾ (البقرة196) فالأمر بالإتمام في هذه الآية احتمل أن يكون معناه إتمام أفعالهما في حالة الشروع فيهما، أو أن يكون معناه الإتيان بهما ابتداء،[135] ذهب الإمام مالك وأبو حنيفة إلى القول بأن مجمل ما تضمنته هذه الآية هو وجوب إتمام الحج والعمرة في حالة الشروع فيهما وليس فيه ما

---

(133) ــ البرهان في أصول الفقه أبو المعالي الجويني،(ج1/ ص255)

(134) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج1، ج2، ص115)

(135) ــ المرجع نفسه، (مج1، ج2، ص217)، بتصرف

يدل على وجوبهما، وقال الشافعي بوجوب العمرة اعتمادا على هذا النص،[136] وقد رجح الطاهر بن عاشور القول بعدم وجوب العمرة وكان مستنده في ذلك المقام الذي سيقت فيه هذه الآيــة، فالآية نزلت ضمن أحداث صد المسلمين عن البيت ومنعهم من إتمام العمرة التي كانوا ينون القيام بها، وهي أحداث وقعت قبل وجوب الحج، فلا دليل فيها على حكم العمــرة أو الحــج وإنمــا استفيد حكمهما من أدلة أخرى[137]

ثالثا) ـــ الكشف عن العلة المقصودة من الحكم:

اعتبر المقام أيضا من بين المدارك التي يمكن أن يتوصل بها إلى بيان العلة المقصودة الــتي تناط في ضوئها الأحكام،[138] ومن بين ما مثل به الغزالي لهذه الحال، مسألة النهي عن البيع وقت النداء يوم الجمعة، حيث اعتبر أن هذه الآية إنما نزلت وسيقت لمقصد بيان الجمعــة، وأن هــذا الوقت يوافق انشغال الناس وسعيهم في البيوع والمعاملات، ممّا يؤدي إلى التكاسل والتســاهل في السعي بسبب هذا الانشغال، فكان النهي عن البيع لكونه مانعا من السعي الواجب للصلاة،"وبهذا يتعدى التحريم إلى ما عدا البيع من الأعمال والأقوال وكل شاغل عن السعي لفهم العلة." [139]

فلما كان المقام الذي نزلت فيه هذه الآية جريان التكاسل بسبب البيع والتساهل في السعي إلى الجمعة، فإن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى هذا التساهل يأخذ نفس حكم البيع.[140]

وبهذا تتبين الأهمية الكبيرة التي يمكن أن يشكلها توظيف المقام في فهم النصوص وتفسيرها، وهو دور لا يختلف كثيرا عن الدور الذي يمكن أن يؤديه في حل بعض الإشكالات الــتي قــد تعرض للناظر من بعض النصوص التي يبدو من ظاهرها التناقض، وهو ما يتناوله المطلب الموالي:

---

(136) ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،(مج1، ج2، ص219)

(137) ـــ المرجع نفسه، (مج1، ج2، ص220)

(138) ـــ نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسيني، ص/ 341

(139) ـــ شفاء الغليل، أبو حامد الغزالي، ص/ 51، 52

(140) ـــ نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسيني، ص/ 341

المطلب الثاني: أثر المقام في دفع التعارض الظاهر بين النصوص

قبل بيان كيفية توظيف المقام في دفع ما قد يبدو للمجتهد من تعارض بين بعض الآيات القرآنية، تجدر الإشارة إلى أن الشريعة الإسلامية لا تعارض فيها ولا تناقض، وأن كل ما قد يبدو من اختلاف بين النصوص الشرعية إنما يعود الاختلاف فيه لذهن المجتهد لا لهذه النصوص, [141] وإلى أنه من بين الأسباب التي تؤدي إلى ورود آيات مختلفة من حيث الظاهر اختلاف المقام الذي سيقت فيه كل آية، ومن هنا كان في استحضار هذا المقام سبيل لفهم الخطابين وإعمال كل واحد منهما بحسب مقامه، ومن بين ما يمكن أن يمثل به لبيان الدور الفعال الذي يشكله استحضار المقام في دفع ما يتوهم من تعارض، قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة239) فقد تناولت هذه الآية الكيفية التي تتم بها الصلاة في حالة الخوف، وفي الموضوع نفسه بين سبحانه وتعالى طريقة أخرى لأداء هذه الفريضة، وذلك بقوله: ﴿ **وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ**﴾ (النساء102) فسر الشافعي سبب الاختلاف الوارد بين الآيتين إلى اختلاف المقام الذي نزلت فيه كل آية، حيث قال:" فكان بينا في كتاب الله عز وجل: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً**﴾ أن الحال التي أذن لهم فيها أن يصلوا رجالا أو ركبانا غير الحال التي أمر فيها نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلى بطائفة ثم بطائفة، فكان بيِّنا أنه لا يؤذن لهم بأن يصلوا رجالا أو ركبانا إلا في خوف أشد من الخوف الذي أمرهم فيه بأن يصلى بطائفة ثم بطائفة." [142] وقد استدل على ذلك بما رواه الإمام مالك عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول:" وإن كان خوفا هو أشد من ذلك صلوا رجالا قياما على أقدامهم أو

---

(141) ــ أصول الفقه، محمد الخضري، ص/ 443

(142) ــ الأم، محمد ابن إدريس الشافعي، (مج1، ج1، ص244)

ركبانا مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال مالك: قال نافع:لا أرى عبد الله ابن عمر قال ذلك إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"[143]

ومن بين ما يمكن التمثيل به لهذا المقام أيضا، الاختلاف الظاهر بين قوله تعالى: ﴿ **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ (البقرة144) وقوله: ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة115) فالناظر إلى مدلول الآية الأخيرة قد يلحظ من الإطلاق الوارد فيه أنه لا يجب على المصلى استقبال القبلة بل له أن يتوجه حيث شاء،[144] وهو معنى يتصادم مع قوله تعالى: ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ لكن بالعودة إلى سبب

(143) ـــ أخرجه البخاري: ك: تفسير القرآن، باب: قوله عز وجل فإن خفتم فرجالا أو ركبانا، (مـــج3، ج5، ص194، 195،رقم: 4535)، الإمام مالك في الموطأ، ك: صلاة الخوف، باب: صلاة الخوف،(ص105، رقم: 443)

(144) ـــ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (ج1/ ص62)

نزول هذه الآية ـــ على اختلاف الأقوال الواردة فيها[145] ـــ والكشف عن المقام الذي نزلت فيه يتبن أنه سبحانه وتعالى قصد حالة مخصوصة تختلف عن الحالة التي أمر فيها بالتوجه إلى المسجد الحرام، فالكشف عن المقام اعتبر وسيلة من وسائل الجمع بين النصوص وإعمالها.

من المسائل التي تظهر في ختام هذا الفصل أن مقام الخطاب لا يقتصر على استحضار لغة الخطاب وحدها لكشف المقصود من هذه اللغة، وإنما يلزم لذلك أيضا البحث عن الظروف والملابسات المحيطة بها سواء تعلق الأمر ببيان ما أحاط بالنص من ملابسات ساعة نزوله، وهو ما يتمثل في أسباب النزول، أو تمثلت تلك الظروف في جميع العوامل والأحوال التي كان يعيشها المخاطبون زمن التشريع، فاستحضار هذه العناصر أمر ضروري لفهم النصوص والكشف عن

مقاصدها، ولأن كانت جميع العناصر السابقة تشكل عوامل هامة لبيان حقيقة مقامات الخطاب، يمكن أن يضاف إلى هذه العوامل عنصرا آخر يساهم في بيان أكثر لهذه الحقيقة، وهو ما يتناوله الفصل الثاني.

---

(145) ـــ ذكرت أسباب كثيرة في نزول هذه الآية منها: ما روي عن ابن عمر أنه قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه قال وفيه نزلت { فأينما تولوا فثم وجه الله }"أخرجه مسلم، ك: الصلاة، باب: جواز صلاة النافلة على الدابة،0مج3، ج5، ص212، رقم: 700)،

وعن عامر بن ربيعة عن أبيه أنه قال:" كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل رجل منا على حياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزل{ فأينما تولوا فثم وجه الله }،

أخرجه الترمذي، ك: الصلاة، باب: ما جاء في الرجل يصلي لغير القبلة في الغيم،(ج2/ص176، رقم: 345)، قال أبو عيسى:" هذا حديث ليس إسناده بذاك لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان وأشعث بن سعيد أبو الربيع السمان يضعف في الحديث" وأخرجه ابن ماجه، ك: الصلاة، باب: من يصلي لغير القبلة وهو لا يعلم،(ج1، ص326، رقم: 1020)، والدارقطني، ك: الصلاة، باب، الاجتهاد في القبلة وجواز التحري في ذلك، 0 مج1، ج1، ص278، 279، رقم: 1052)

الفصل الثاني: أنواع مقامات الخطاب

المبحث الأول: مقام البيان والتبليغ

المطلب الأول: أهم الأحكام التي تضمنها مقام التبليغ والبيان

المطلب الثاني: صيغة الخطاب الخاص بمقام التبليغ والبيان

المبحث الثاني: مقام الإمامة

المطلب الأول: أهم المواضيع التي تضمنها مقام الإمامة

المطلب الثاني: صيغة الخطاب الخاص بمقام الإمامة

المطلب الثالث: أثر اختلاف العلماء في مقام بعض الآيات

المبحث الثالث: مقام القضاء

المطلب الأول: أهم المواضيع التي تضمنها مقام القضاء

المطلب الثاني: صيغة الخطاب الخاص بمقام القضاء

المطلب الثالث: أثر اختلاف العلماء في مقام بعض الآيات

الفصل الثاني: أنواع مقامات الخطاب في القرآن الكريم.

إنّ الحديث عن أنواع المقامات في القرآن الكريم يعني الحديث عن المواضيع التي عالجها، وعن العلوم التي حواها، وعن الأهداف التي قصدها، فهي تتنوع تنوع هذه الأهداف والمقاصد، وقد عد الطاهر بن عاشور منها ــ في التحرير والتنوير ــ ما يزيد عن 38 مقاما هي:(مقام الفخر والعظمة، مقام الامتنان، مقام الاستدلال، مقام الدعاء، مقام التشريع، مقام البيان ، مقام الأمر، مقام الإرشاد، مقام الإنكار والتوبيخ، مقام الترغيب والترهيب، مقام الملام والعتاب، مقام التحدي، مقام التعجب، مقام التهديد ، مقام الذم، مقام التحذير والإنذار، مقام والعد والوعيد، مقام المجادلة والمحاجة، مقام الإثبات، مقام التعظيم، مقام التشريف والاصطفاء، مقام الشكر، مقام التنويه والثناء، مقام التذكير، مقام التهويل، مقام الإخبار، مقام الدعوى، مقام الموعظة، مقام التعليم، مقام الأدب، مقام الحوار، مقام التيئيس، مقام التسجيل، مقام التهكم والاحتقار، مقام الخوف والوجل، مقام الزجر، مقام التخطئة، مقام التشهير، " ويمكن القول أن هذه المقامات على تنوعها واختلافها لا تخرج عن كونها جاءت لقصدين، إمّا أنها سيقت لقصد إصلاح أحوال الفرد في حياته ومعاشه، أو أنها جاءت لإصلاح المجتمع وحمايته ممّا قد يهدد كيانه واستقراره، لذا ارتأيت أن أقسم أنواع المقامات بحسب هذا الاعتبار.

أي باعتبار أن مختلف المقامات الواردة في النصوص القرآنية قصد منها تبليغ كل من وصلته الرسالة وتكليفه بها، سواء كان ذلك من باب التشريع أو الإرشاد أو التعليم، أو الترغيب أو الترهيب، فهو مخاطب بجميع نصوصها ملزم بالامتثال والقيام بجميع الأوامر الواردة فيها والانتهاء عن جميع النواهي المنهي عنها إذا ما توفرت فيه الشروط وانتفت الموانع، دون حاجة إلى من يساعده في القيام بهذه التكاليف أو أن يقوم بها مكانه، أو أنها تناولت أحكاما خاصة بأفراد معينين يتولون تنفيذها مادامت تخدم مصالح الأمة لا مصلحة الفرد فقط، فالنوع الأول من الآيات يدخل ضمن مقام التبليغ والبيان، والقسم الثاني يدخل ضمن مقام الإمامة أو مقام القضاء.

هذا وقد ارتأيت هذا التقسيم للسبب السالف الذكر ولأسباب أخرى أهمها:

ــ ورود آيات في الكتاب العزيز تبين أن الحكمة من إنزال القرآن تبليغه للناس وبيانه، قال تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل44) وقال في مقام

آخر:﴿ **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (النحل64) كما وردت آيات أخرى تذكر بأن المقصد من نزول القرآن الحكم بين الناس فيمـــا يشجر بينهم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّـــهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً**﴾ (النساء 105) وقال أيضا: ﴿ **وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ (المائدة 49) والحكم بين الناس إما أن يكون في مسائل عامة يتولى الحاكم تنفيذها، أو في مسائل تحدث بين المتخاصـــمين يتـــولى القاضي الفصل فيها.

ـــ أن هذا التقسيم قد اعتمده العديد من العلماء في بيان أقسام تصرفات النبي صلى الله عليـــه وسلم ،حيث قسموها إلى مقام تبليغ ومقام قضاء ومقام إمامة فارتأيت أن أسير وفق هذا المنهج لما له من فائدة في فهم النصوص وتفسيرها، ولأني لم ألحظ اختلافا كبيرا بين المقـــامين، فالمقـــام في تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم يبين نوع التصرف إن كان قد صدر عنه عليه الصلاة والسلام بصفته مبلغ هذه الأمة ونبيها، أو بصفته إمامها أو قاضيها، أما المقام في القرآن الكـــريم فيخـــتص ببيان نوع الخطاب القرآني الموجه للنبي صلى الله عليه وسلم أو لعموم المؤمنين إن كان قد خاطبهم بقصد التبليغ والبيان، أو أن المقصود من الخطاب اقتصاره على مهام الإمام أو القاضي. وانطلاقـــا من هذا التقسيم تناولت هذا الفصل في ثلاثة مباحث هي: مقام التبليغ والبيان، مقام الإمامة، مقام القضاء.

المبحث الأول: مقام البيان والتبليغ

ويقصد بمقام التبليغ مجموعة النصوص القرآنية الموجهة نحو المكلفين قصد امتثال أحكامها متى توفرت الشروط وانتفت الموانع. ويتضمن هذا المبحث مطلبين:

المطلب الأول: أهم الأحكام التي تضمنها مقام التبليغ والبيان

إن المتأمل في الآيات الواردة في هذا المقام يلاحظ أنها قد حوت مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأحكام، وأن هذه الأحكام لا تخرج في مجملها عن أقسام ثلاثة[1] هي:

أولا) ــ الأحكام العقدية:

تناولت النصوص القرآنية أصول الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر، وأقامت على ذلك الحجج والبراهين والأدلة القاطعة حتى تستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية الفاسدة وتغرس فيها عقيدة التوحيد،[2] ولما كانت طبائع الناس متفاوتة وأفكارهم متباينة، فمنهم من لا يصدق إلا بالبرهان والحجة، ومنهم من كان متأثرا بمذهب ديني سابق يصعب عليه تغييره أو تبديله، وهناك من هو في تفكيره أقرب إلى الفطرة بحيث لا يحتاج إلى كبير عناء لإقناعه، جاءت الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم لهذا القصد وفق هذا التباين،[3] كما تنوعت المقامات الواردة فيه على حسب ما قصد سبحانه وتعالى بيانه.

فإذا ما أراد سبحانه إثبات وجوده استدل على ذلك بمخلوقاته، فكل ما جاء في القرآن الكريم من التنبيه على المخلوقات من الاعتبار بخلق السماوات والأرض وذكر الآيات الكونية من تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب، وخلق الحيوانات والنباتات وغير ذلك فهو دليل على خالقه،[4] قال تعالى: ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ**

---

(1) ــ دراسات في القرآن الكريم، محمد إبراهيم الحفناوي، ص/ 126

(2) ــ دراسات قرآنية، عبد السلام الشريف، ص/21

(3) ــ تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، ص/ 58

(4) ــ التسهيل في علوم التنزيل، محمد ابن جزي، (بيروت، الدار العربية للكتاب، بط، بت)، ص/ 5

لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ﴾ (إبراهيم10)، أي هو الـــذي خلقهمـــا وأبدعهما على غير مثال سابق، ففي بيان خلق السموات والأرض والتفكر فيهما دليل اســـتخدمه تعالى في مقام إثبات وجوده،[5]

وفي مقام إثبات وحدانيته تعالى والرد على ادعاءات المشركين بالتعريف بصفاته والتتريـــه عما لا يليق به جاء بما يرد ذلك، قال تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (الأنبياء22)، وقال في مقام مجادلة إبراهيم للنمرود: ﴿ **قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّـــهُ لا يَهْـــدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾(البقرة258)، ففي هذه الآية وغيرها من النصوص الواردة في هذا السياق دليل استخدمه الله سبحانه لإثبات تفرده بالخلق والملك،[6] إذ اختلاف الآلهة يقتضـــي فســـاد نظـــام المخلوقات.

ولما بين سبحانه دلائل وجود الصانع ووحدانيته، أقام الأدلة على صدق نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث استخدم أسلوب التحدي والتعجيز، فقد تحدى العرب بأن يأتوا بمثل القـــرآن، وكرر عليهم هذا التحدي في صور شتى متهكما بهم نازلا معهم من الأخف فـــالأخف،[7] فقـــد تحداهم عن الإتيان بمثله في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾ (الإسراء88)، فلمـــا عجـــزوا عـــن معارضته دعاهم لأن يأتوا بعشر سور مثله: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْـــرِ سُـــوَرٍ مِثْلِـــهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (هود13)، ثم واصـــل هـــذا التحدي ليصل بهم إلى بيان عجزهم عن الإتيان بسورة واحد منه،[8] ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة23)، وقد

---

(5)ــ تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (ج13/ ص133)

(6)ــ من أسرار التتريل، فخر الدين الرازي، تحق: عبد القادر أحمد عطا، ص/ 24

(7)ــ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، عبد الله دراز، ص/ 84

(8)ــ من أسرار التتريل، فخر الدين الرازي، ص/ 27

أباح لهم في كل مرة بأن يستعينوا بمن استطاعوا، ثم رماهم والمخلوقات كلها بالعجز عن ذلك،[9] هذا ولم يقتصر في إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم على بيان صحة القرآن وإعجازه، بل اعتمد أساليب أخرى تتلاءم والطرق التي رد بها المشركون صحة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم،[10] وهي أساليب لا تختلف في مجملها عمّا رد به ادعاءات الأمم السابقة وتكذيبهم لرسلهم.

أما فيما يخص إثبات الميعاد واليوم الآخر،فلم يختلف المنهج القرآني عمّا سبق في إثبات هذا الركن، فقد استعمل الأدلة العقلية والمنطقية التي تبين قدرة الله تعالى على إعادة البعث من جديد، إذ القادر على الخلق أول مرة قادر على إعادة هذا الخلق : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ (يس78،79)، فمن خلق الإنسان على ما أخبر به تعالى، فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت، قادر على إعادته بالبعث من جديد، ومن أوجد الأرض بعد العدم فأحياها بالخلق ثم أماتها بالمحل ثم أحياها بالخصب قادر على إعادة بعثها مرة أخرى،،[11] كما أن في بيان الحكمة من البعث دليل استدل به تعالى على ضرورة الحساب ومشروعيته، إذ من غير العدل ألا يحاسب الإنسان على أعماله وأن لا يجازى كل مخلوق بما اكتسب.

وبهذا التنوع في الأساليب والمقامات عمل سبحانه وتعالى على إثبات مختلف المسائل العقدية لما لهذا الموضوع من أولوية واهتمام في نظر الشارع الحكيم.

ثانيا) ــ الأحكام التشريعية:

ويقصد بالأحكام التشريعية جملة الأوامر والنواهي التي قصد منها الشارع الحكيم إقامة المصالح الدنيوية والأخروية للعباد،[12] فقد أوضح سبحانه وتعالى من خلال النصوص التي تناولت هذا القسم، الأحكام المتعلقة بالعبادات، حيث بين ما يجب على العبد من حقوق اتجاه خالقه، من

(9) ــ النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، عبد الله دراز، ص/ 84

(10) ــ الحوار في القرآن الكريم قواعده أساليبه ومعطياته، محمد حسين فضل الله، ص/ 105

(11) ــ أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها، حسن جبر، ص/ 59

(12) ــ الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، (مج1، ج2، ص285)

صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وسائر العبادات التي نصت عليها آيات الذكر الحكيم، كما بـين الأحكام المتعلقة بسائر المعاملات، كتقرير أحكام البيوع والمبادلات المالية بين الأفـراد، وبيـان الأحكام الخاصة بالأحول الشخصية، من زواج، وطلاق، وميراث، وكل ما له علاقـة بأحكـام الأسرة وما يتم من معاملات بين الأفراد[13] وقد سلك سبحانه وتعالى في عرضه لهذا المقام مسلك الإجمال في الغالب من أحكامه، حيث " جمع الأحكام جمعا كليا"[14] بأن عرف بحكم الشـرع في الموضوع ثمّ ترك إيضاحه وبيان شروطه والكيفية التي يتمّ عليها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويلحظ هذا التوجه في عامة العبادات، كما يلحظ ذلك في الكثير من المعاملات،[15] كمـا بـين القرآن الكريم في العديد من النصوص حكمه في الموضوع بطريقة واضحة ومفصلة لا إبهام فيهـا ولا إجمال، وذلك نحو بيانه لأحكام المواريث وحقوق كل فرد فيها[16] وبيان المحرمات من النساء وتحديد عدد الزوجات، ويمكن القول أن الشارع الحكيم سلك هذا المسـلك "في المهـم مـن الأحكام"[17]

---

(13) ــ من روائع القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي/ ص/165

(14) ــ مقدمة التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،المقدمة الرابعة، (مج1، ج1، ص40)

(15) ــ من روائع البيان، محمد سعيد رمضان البوطي، ص/ 165

(16) ــ المرجع نفسه، ص/ 165

(17) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،المقدمة الرابعة(مج1، ج1، ص40)

كما يمكن القول أيضا، أن هذه الأحكام على تنوعها واختلافها لا تخرج عن كونها جاءت لرعاية مقاصد الله في الخلق، وأن هذه المقاصد لا تخرج عن ثلاثة أقسام، فهي أحكام سيقت إما لحماية المصالح الضرورية،[18] أو الحاجية[19] أو التحسينية[20] في كل كلية [21] من كليات الشريعة [22]

إن الأهمية الكبيرة التي يكتسيها هذا الموضوع أدت إلى وضع جملة من الضمانات لتطبيقها، من بين هذه الضمانات سوق جملة من النصوص التي من شأنها أن تحرك الضمير الإنساني وأن تجعل وازعه من نفسه، بأن تبث فيه جملة من القيم والأخلاق الفاضلة التي عملت النصوص القرآنية على بيانها،[23] وهو ما يتناوله المطلب الموالي:

---

(18) ــ المصالح الضرورية هي " التي تكون الأمة بمجموعها وآحادها في ضرورة إلى تحصيلها لا يستقيم النظام بإخلالها بحيث إذا انخرمت تؤول حالة الأمة إلى فساد وتلاشي" أنظر مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/ 79

(19) ــ المصالح الحاجية هي ما تحتاج الأمة إليها لاقتناء مصالحها وانتظام أمورها على وجه حسن، بحيث لولا مراعاته لما فسد النظام ولكنه كان على حالة غير منتظمة" أنظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/ 82

(20) ــ المصالح التحسينية هي " ما كان بها كمال حالة الأمة في نظامها.." أنظر مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/ 82

(21) ــ الكليات الخمس هي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل، أنظر: الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، (مج1، ج2، ص266)

(22) ــ الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، (مج1، ج2، ص265)

(23) ــ من روائع القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص/ 165

ثالثا) ــ الأحكام الخلقية

قد يبدو للمتأمل في النصوص القرآنية الواردة في هذا المقام، أن القرآن الكريم ما أنزل إلا لقصد بناء الأخلاق وتقويمها، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعة،[24] وذلك لما يلحظه من الاهتمام الكبير والرعاية الفائقة التي أولاها سبحانه وتعالى لبيان فضائل الأعمال والترغيب فيها بما ذكر من إعلاء مترلة المتصفين بها وبيان حسن عاقبتهم عاجلا وآجلا، والحط من قيمة الرذائل بما استخدمه من وسائل ترهب منها، نحو بيان فساد هذه الأعمال وما ينجم عنها من مضار ومفاسد، ووصف أصحابها بالمهانة في الدنيا وسوء العاقبة في الآخرة.[25] ولعل أكبر مظهر من مظاهر اهتمام الشارع الحكيم بهذا المقام، وصفه لنبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم4)

ويلاحظ من خلال الآيات الواردة في هذا المقام أنه سبحانه وتعالى قد سلك في تناول هذا الموضوع مسلكين هما:

1) ــ التعميم في بيان القيم الخلقية:

دعا القرآن الكريم في العديد من الآيات إلى التحلي بالأخلاق الكريمة دعوة عامة، حيث رغب في الخير والفضائل في جملة كبيرة من النصوص وإن لم يبين نوع الخير أو نوع الفضيلة، كما رهب بالأسلوب نفسه من الرذائل والمنكرات والفحش،([26]) ولعل السبب في ذلك يعود إلى سعة الموضوع الأخلاقي وصعوبة حصره في مجال من المجالات، ومن بين ما ذكره في مقام الترغيب في فضائل الأعمال قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الحج77) قال الرازي في بيان المقصود بالخير المأمور به في قوله تعالى: ﴿ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ**﴾ " ..و الوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر

([24]) ــ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، محمد التومي، ص/ 204

([25]) ــ منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، محمد السيد يوسف، ص/ 199

([26]) ــ المرجع نفسه، ص/ 199

الله، وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله، ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس، فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة، بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة، بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات."[27]

ومن بين ما ذكره في مقام الترهيب من الرذائل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُ** ﴾ (الأعراف33)

هذا و لم يكتف الشارع الحكيم بهذا العموم، بل بيّن في الكثير من النصوص المسائل الأخلاقية بصورة مفصلة.

2) ــ التفصيل في الأحكام الخلقية:

اهتمت النصوص القرآنية ببيان مختلف المسائل والأعمال التي من شأنها أن ترقى بالنفس الإنسانية وتهذب سلوكها،[28] فالأخلاق في نظر الشارع لا تقتصر على الأعمال البارزة والسلوكات المعروفة، وإنما تدخل في كل سلوك يسلكه المؤمن، سواء كان الفعل من الأعمال العظيمة التي يشق على بعض الناس القيام بها أو امتثالها، أو كان عملا بسيطا قد لا ينتبه له البعض عند صدوره، ففي المقام الأول حث سبحانه وتعالى عباده على جملة من الخصال التي ينبغي لكل مسلم أن يتصف بها، نحو أمره بالبر، والصبر، والعفو، والعدل، والإحسان، والرحمة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من الفضائل التي تكمل النفس البشرية وترقى بها، وفي المقام الثاني، ومن بين ما بينه سبحانه وتعالى من المسائل التي تؤكد حرصه على أن يتحلى المؤمن بالأخلاق في كل جزئية من جزئيات حياته الفردية والجماعية، تنظيمه لكيفية التعامل بين المؤمنين في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم،حيث قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ (الحجرات2) كما نظم سبحانه وتعالى قواعد الزيارة وأصولها من خلال تشريعه استئذان أصحاب البيوت والتسليم عليهم، فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ**

---

(27) ــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج12، ج23، ص65)

(28) ــ الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، ص/ 28

بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ،فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (النور27،28) وقصد تهذيب سلوك الأفراد أيضا، أمر بغض الصوت، والقصد في المشي بقوله: ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان19) وغير ذلك من الأوامر التي جاءت لتنظيم حياة الجماعة المسلمة وتعريف عناصرها بما يجب عليهم وما يحق لهم.

المطلب الثاني: صيغة الخطاب الخاص بمقام التبليغ والبيان

سبقت الإشارة إلى أن المقصود بمقام التبليغ والبيان ، أن الأحكام الواردة في هذه الآيات موجهة لكل من بلغته الرسالة دون حاجة إلى من يقوم بهذه الأحكام مقامه ولا لمن يساعده على تطبيقها, وهي أحكام كثيرة ومتنوعة شملت مختلف الجوانب الحياتية للمكلف، من إصلاح عقيدته، وأخلاقه، وعبادته ومعاشه، كل هذه المواضيع تطلبت تنوع النصوص وكثرتها لتحقيق هذا القصد، كما تطلبت كثرة الأساليب التي خوطب بها السامعون، ولأن كل خطاب يقتضي أن يكون موجها لمعين حتى يتم الامتثال للأوامر الواردة فيه، فقد وجه سبحانه وتعالى خطاباته نحو عموم الأمة بصيغتين أساسيتين هما:

أولا) ـــ ورود الخطاب بصيغة العموم:

خاطب الشارع الحكيم المكلفين بصيغة العموم في معظم النصوص الواردة في هـــذا المقـــام قصد تعميم أحكامه على كل فرد يشمله ذلك العام،" [29]

مستعملا في ذلك صيغا متعددة" [30] تدل على أن العموم مراد من هذه النصوص ، والأمثلة كثيرة على هذا النوع من ذلك نداؤه سبحانه وتعالى للناس وتنبيههم لأوامره في العديد من الآيات منـــها

---

(29) ـــ ورد خلاف بين الأصوليين فيما إذا كان المستفاد من ظاهر اللفظ الوارد بصيغة العموم أن مقصود الشارع منه تعميم الحكم على كل فرد يشمله ذلك العام إلا أن يرد دليل يصرفه عن عمومه، فذكروا فيه ثلاثة أقوال: ذهب أصحاب القول الأول إلى أن ما ذكر من صيغ العموم إنما وضع للخصوص وهو أقل الجمع إما اثنين أو ثلاثة، ولا يقتضى العموم فيما فوق ذلك إلا بقرينة، وذهب أنصار المذهب الثاني إلى التوقف لأن ما يطلق عليه صيغ العموم مشترك يصلح للاستغراق وللاقتصار على الأقل، ولتناول عدد بين الأقل والاستغراق، ومن ثمّ وجب التوقف فلا يحمل على أحد منهما إلا بانضمام قرينة، وذهب أصحاب القول الثالث إلى أن صيغ العموم تفيد الشمول والاستغراق لكل ما تصلح له بدلالة الوضع، وأنه لا يصرف عن العموم إلى الخصوص إلا بقرينة. أنظر: طرق الكشف عن المقاصد، نعمان جعيم، ص/ 76، 77

(30) ـــ من بين أهم صيغ العموم مايلي:

" 1) ـــ لفظ كل ولفظ جميع، مثل قوله تعالى:{ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدثر38)، وقوله{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} (البقرة29)

2)ـــ الجمع المعرف اللام الاستغراقية، مثل قوله تعالى:{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ} (المؤمنون2،1)

3) ـــ الجمع المعرف بالإضافة، مثل قوله تعالى:{ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} (النساء11)

4) ـــ المفرد المعرف ب ـــ ال ـــ التي تفيد الاستغراق، مثل قوله تعالى:{ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا}(المائدة38)

5)ـــ أسماء الشرط، مثل قوله تعالى:{ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} (البقرة185)

6) ـــ الأسماء الموصولة، مثل قوله تعالى:{ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} (البقرة275)

7)ـــ أسماء الاستفهام، مثل قوله تعالى:{ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً} (البقرة245)

8)ـــ النكرة في سياق النفي، مثل قوله تعالى:{ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} (التوبة84)

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة21) فقد وجه سبحانه وتعالى هذا النداء للفريقين اللذين بين أحوالهما في أول السورة، من المشركين والمنافقين، وهو أمر يشمل كل من بلغته الرسالة بأن يعبد الله وحده ويفرده بالعبادة،وبأن يتقيه ويخضع لأوامره تعالى.[31] تما شيا مع أصل الرسالة التي أكد سبحانه وتعالى في جملة من نصوصها أنها عامة لكافة الناس قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ (الأعراف158) وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ28)

ومن الخطابات العامة التي استخدمها تعالى في مقام تشريع أحكامه قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ذكر ابن كثير أن ابن مسعود وغيره من السلف قال:" إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأوعها سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه."[32]

كما استخدم سبحانه وتعالى أساليب وصيغ أخرى تتماشى والمقامات التي وردت فيها، إلا أنها لا تخرج عن كونها خطابات عامة قصد الشارع الحكيم تبليغها للمكلفين ودعوتهم لامتثالها.

ثانيا) ــ ورود الخطاب بصيغة الخصوص

ورد في الكتاب العزيز جملة من النصوص التي وجه فيها الخطاب للنبي صلي الله عليه وسلم بصيغة الخاص، إلا أن هذه النصوص ليست خاصة به عليه الصلاة والسلام،[33] بل جاءت بهذه

---

9)ــ النكرة الموصوفة بوصف عام، مثل قوله تعالى:{ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} (البقرة283)، أنظر: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، ص/ 74

(31)ــ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (مج2، ج2، ص17)

(32) ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير،(ج1/ ص58)

(33)ــ قال الآمدي:" إذا ورد خطاب خاص بالنبي، صلى الله عليه وسلم،.... لا يعم الامة ذلك الخطاب عند أصحابنا، خلافا لأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأصحابهما في قولهم إنه يكون خطابا للأمة، إلا ما دل الدليل فيه على الفرق." أنظر: الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، (ج2/ ص281)

الصيغة لمكانة النبي صلى الله عليه وسلم ومنصبه بين المؤمنين،[34] ومن بين النصوص التي ذكرت في هذا المقام قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ (الأحزاب1) فقد نبه سبحانه وتعالى من خلال هذا النص بالأعلى على الأدنى،وذلك لأن في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الرسالة بتقوى الله أمر لغيره من باب أولى، فالخطاب يشمله ويشمل عموم الأمة.[35] ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**﴾ (البقرة106، 107) قال الطبري في بيان هذه الآية:"....ولكن ذلك عندي، وإن كان ظهر ظهور الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، فإنما هو معني به أصحابه الذين قال الله جل ثناؤه: ﴿**لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا**﴾ (البقرة104) والذي يدل على أن ذلك كذلك قوله جل ثناؤه: ﴿**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**﴾، فعاد بالخطاب في آخر الآية إلى جميعهم."[36] كما رد الطبري أيضا على التساؤل الذي قد ينشأ من قوله تعالى لنبيه الكريم: ﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ (البقرة174) بقوله:" فإن قال لنا قائل: أوَ كان النبي صلى الله عليه وسلم شَاكًّا في أنّ الحق من رَبه، أو في أن القبلة التي وجَّهه الله إليها حق من الله تعالى ذكره، حتى نُهي عن الشك في ذلك....قيل: ذلك من الكلام الذي تُخرجه العرب مَخْرَج الأمر أو النهي للمخاطب به والمراد به غيره،[37] فالخطاب في هذه الآية وغيرها من النصوص التي في مثل هذا المقام، خطابات قصد بها الشارع الحكيم أمر المؤمنين أو نهيهم بما ورد في تلك النصوص، وإن كانت موجهة للنبي صلى الله عليه وسلم.

وتبقى الإشارة إلى أن هناك جملة من الآيات خوطب فيها النبي بصيغة الخصوص ولا تدخل في هذا المقام، فهي خطابات إما وردت في مقام الإمامة أو القضاء،[38] بحيث أمر النبي عليه

---

[34] ــ أصول الفقه، محمد الخضري، ص/ 208

[35] ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير،(ج3/ ص448)

[36] ــ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (مج1، ج1، ص383)

[37] ــ المصدر نفسه، (مج2، ج2، ص17)

[38] ــ أنظر تفصيل هذه المسألة في المبحثين الثاني والثالث من هذا الفصل

الصلاة والسلام بصفته إمام هذه الأمة وحاكمها، أو أنها نصوص خاصة به عليه الصلاة والسلام دون غيره.وهي نصوص قليلة إذا ما قورنت مع الخطابات الأخرى، لذا يمكن القول أنها لا تأثر في تقسيم مقامات الخطاب بهذا الاعتبار.[39]

المبحث الثاني: مقام الإمامة

سبقت الإشارة إلى أن المقصود من مقام الإمامة ، الآيات القرآنية الموجهة للحكام باعتبارهم نواب عن الأمة في القيام بجميع الأحكام التي تناولتها هذه الآيات، وذلك لأن النصوص القرآنية قد وجهت أصالة إليهم سواء تعلق ذلك بأوامر كلفهم الشارع الحكيم بها أو نواه نهاهم عنها، ويمكن دراسة هذا المقام من جوانب ثلاثة هي:

المطلب الأول: أهم المواضيع التي تضمنها مقام الإمامة.

عمل القرآن الكريم على بيان الأحكام المتعلقة بنظام الحكم وأصوله[40] قاصدا من وراء ذلك تكوين دولة إسلامية لها كيانها ومكانتها، لذا كلفت أوامره الصريحة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده بالقيام بشؤون الحكم والسياسة بمختلف جوانبها واختصاصاتها،[41] ويمكن القول أن خلاصة ما تضمنته هذه الآيات يكمن في الجوانب التالية:

أولا) ــ **تنظيم العلاقة بين الإمام والرعية:**

يمكن لكل من تتبع النصوص القرآنية الواردة في هذا المقام أن يلاحظ بأنها قد اهتمت ببيان العلاقة الواجب إتباعها بين ولي الأمر والرعية، وأنها وضعت لذلك أسسا يلتزمون بها حتى يتسنى

---

(39) ــ قال الشاطبي ردا على من قال بوجود بعض النصوص القرآنية انفرد فيها الترغيب دون الترهيب أو العكس، بعد قوله بأنه لايوجد في القرآن الكريم ترغيب إلا وأتبعه ترهيب والعكس كذلك " فالإجمابي أن يقال إن الأمر العام والقانون الشائع هو ما تقدم فلا تنقضه الأفراد الجزئية الأقلية لأن الكلية إذا كانت أكثرية في الوضعيات انعقدت كلية واعتمدت في الحكم بها "

أنظر: الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، (مج2، ج3، ص241)

(40) ــ دراسات في القرآن الكريم، محمود إبراهيم، ص/ 129

(41) ــ المنهاج القرآني في التشريع، عبد الستار فتح الله سعيد، ص/ 512

لهم تسيير أمور الدولة وإدارة شؤونها،[42] وأن أول هذه القواعد التي بينتها، المصدر التشريعي الذي يجب أن يلتزم به كل من تولى أمور المسلمين، قال تعالى: ﴿ **وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ (المائدة 49) وقــال أيضـــا: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ (المائدة 44)

فالحكم بما أنزل الله،[43] هو المصدر الرئيسي الذي يجب على كل من تــولى شــؤون الدولــة الإسلامية إتباعه، ولأن الخروج عن هذا الحكم فيه ما فيه من المضار والمفاسد، وصفه الشارع الحكيم بهذه الأوصاف الشنيعة وحذر منه .[44]

وفي أثناء بيان العلاقة التي تربط بين الحكام والمحكومين أكد سبحانه وتعالى على ضــرورة تسيير أمور الرعية بالعدل والإحسان حيث قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ (النساء 58) فالخطاب في هذه الآيــة موجــه ابتداءا للحكام بأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وبأن يحكموا بالعدل بقرينة[45] ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَــيْنَ النَّاسِ**﴾ وقد روي هذا القول عن علي رضي الله عنه، وعن وزيد بــن أســلم ، وشــهر بــن حوشب، وآخرون[46] والعدل المأمور به في هذه الآية وإن كان موجها ابتداءا للحكام إلا أن هذا الأمر غير مقصور عليهم، بل يشمل أيضا عدل الرعية مع الراعي وعدل الناس فيما بينهم.[47]

---

[42] ــ دراسات في القرآن الكريم، محمود إبراهيم، ص/ 129

[43] ــ الحكم بما أنزل الله من الأمور المأمور بها في مقام الإمامة وفي مقام القضاء أيضا، لذا يمكن القول أن كل أمر ورد في القرآن الكريم بالحكم بين الناس صالح لأن يكون مثالا لمقام الإمامة كما يصلح أيضا لمقام القضاء، وذلك لأن الإمام يتولى حكم الرعية وتسيير أمورها والقاضي يتولى الحكم بين الناس والفصل في المنازعات والخصومات

[44]ــ أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، (ج1/ ص274

[45] ــ القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، عبد الرحمن الحميضي، ، ص/ 87

[46] ــ جامع البيان في تأويل آيات القرآن، محمد ابن جرير الطبري، (مج4، ج5، ص92)

[47] ــ أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، (ج1/ ص497)

لم يكتف القرآن الكريم بدعوة الحكام إلى التزام العدل والحكم بما أنزل الله، بل أكثر من ذلك فقد اعتنى ببيان كل ما من شأنه أن يوصل إلى تحقيق هذا القصد، ولأن الأخذ بالشورى سبيل من السبل المؤدية لذلك،[48] أمر الشارع الحكيم ولاة الأمور بانتهاجها من خلال أمره للنبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾ (آل عمران 159) وهذا الأمر وإن كان المخاطب به النبي عليه الصلاة والسلام، إلا أنه يشمل خلفاء المسلمين من بعده ، لذا اتجه العديد من العلماء إلى القول بوجوب الشورى على الحاكم، قال ابن عطية:" والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام؛ من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب." [49]وقال ابن خويز منداد:" واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها"[50]

وبعد أن أمر الله سبحانه وتعالى الحكام بأداء الأمانة والحكم بالعدل، وحدد لهم الأمور الواجبة عليهم اتجاه الرعية، وجه الأمر للمسلمين بطاعة حكامهم[51] وذلك لأن في طاعتهم مظهرا من مظاهر نفوذ العدل المأمور به[52] حيث قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ (النساء 59) ومعنى ذلك أن طاعة الحكام فيما لم يكن فيه معصية للخالق من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطاعته عليه الصلاة والسلام من طاعة الله تعالى[53] ولهذا قال علي رضي الله عنه:" حق على الإمام أن يحكم بالعدل ويؤدي الأمانة فإذا فعل ذلك فحق على

---

(48) ــ القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، عبد الرحمن الحميضي، ، ص/ 87

(49) ــ المحرر الوجيز، ابن عطية، (ج3/ ص397)

(50) ــ فتح القدير، الشوكاني، (ج1/ ص394)

(51) ــ مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد الرازي، (مج5، ج10، ص127)

(52) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج2، ج5، ص96)

(53) ــ أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، (ج1/ ص497)

الرعية أن يسمعوا ويطيعوا"[54] وبهذا تتجسد العلاقة التكاملية بين الحاكم والمحكومين من خـــلال تبادل الحقوق والواجبات المترتبة على الطرفين.

ثانيا) ــ تنظيم الشؤون الداخلية للدولة الإسلامية:

من المعلوم أنه لا يتسنى لأي دولة القيام على أسس سليمة وقواعد متينة ما لم يتوفر فيها أمرين أساسيين، الاستقرار الاقتصادي والاستقرار الأمني، لذا عمل القرآن الكريم على توفير هذين الشرطين واهتم ببيان سبل الوصول إلى تحقيقهما.

ففي المجال الاقتصادي اهتمت آيات الذكر الحكيم الواردة في هذا المقام اهتماما بالغـا بتحصيل أموال للدولة الإسلامية وبالمحافظة عليها،[55] وذلك لما لهذه الأموال من آثار في بناء قـــوام الأمة وتقوية شوكتها[56] حيث حددت الموارد التي يمكن أن تعتمد عليها لتحقيق مدا خيل تســد حاجاتها، كما بينت سبل توزيع هذه الموارد، ومن بين أهم المصادر التي حرص الشارع الحكـيم على تحصيلها أموال الزكاة، فقد عدت أحد القواعد التي بني عليها هذا الدين[57] كمـا جعـل أداؤها شعارا للمسلمين وجعل انتفاؤها شعارا للمشـركين،[58] قـال تعـالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ (التوبة 71)، وقال أيضا في مقام تهديد للمشركين: ﴿ **وَوَيْـلٌ لِلْمُشْـرِكِينَ، الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** ﴾ (فصلت 6،7) وبعد أن بينت آيات الذكر الحكيم أهمية الزكاة وضرورة أدائها، تكفلت أيضا ببيان مصارفها ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّـهِ**

(54) ــ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (مج4، ج5، ص92)

(55) ــ قال ابن تيمية أن :" الأموال السلطانية التي أصلها في الكتاب والسنة ؛ ثلاثة أصناف : الغنيمة، والصدقة، والفيء"

أنظر السياسة الشرعية، ابن تيمية- ص/37)

(56) ــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/167

(57) ــ منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، محمد السيد يوسف، ص/ 258

(58) ــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/ 167

وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة 60) ففي هذه الآية تكفـــل مـــن الله سبحانه وتعالى ببيان مستحقي هذه الأموال، كما أن فيها دليل على أن مسؤولية جمع هذه الأموال وتوزيعها تعود إلى الحاكم أو من ولي من قبله، والدليل على ذلك جعل سهم للعـــاملين عليهـــا، والعامل عليها لا ينصب إلا من قبل الإمام. [59]

ومن الموارد التي شرعها الشارع الحكيم أيضا،الفيء والغنائم [60] وأموال الجزية وهي موارد بين القرآن الكريم مشروعية تحصيلها كما بين المصارف التي تصرف فيها،قال تعالى: ﴿ **مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ**﴾ (الحشر 7) وقال أيضا: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ (الأنفال 41) ففي ذكر هذه الأصناف بيان لموارد شرعت لسد حاجة الدولة الإسلامية وحاجة شعوبها، ولما كان تحصيل هذه الأموال وتوزيعها لا يتأتى إلا إذا تكفل به من هو مؤهل لذلك أوكل الشارع الحكيم مسؤولية هذا الأمر لولاة الأمور لما لهم من دراية بأحوال الأمة ومتطلباتها، لذا قال الإمام مالك بأن مصارف الزكاة موكول لاجتهاد الحاكم، فإن رأى أن هناك حاجة إلى توزيع هذه الأموال على بعض الفئات دون غيرها كان له ذلك بحسب ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة،[61] وكذا ذهب إلى هذا القول أبو حنيفة ، وهو قول عمر، وحذيفة، وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهم،[62] كما ذهب المالكية أيضا إلى أن خمس الغنائم يجعل في بيت المال ينفق منه

---

(59) ـــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج8، ج16، ص100)

(60) ـــ الفيء ما أخذ من الكفار بغير قتال، والغنيمة ما أخذ من الكفار وبقتال، أنظر السياسة الشرعية، ابن تيمية،(باب الفيء،ص/44)، (باب الغنيمة، ص/37)

(61) ـــ " السلطة الاقتصادية لولي الأمر وحدودها في المذهب المالكي"، عبد الله كامل الكتاني، ملتقى الاجتهاد، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر ج4/ ص12

62 ـــ وقال الشافعي وبعض أهل العلم تقسم أموال الزكاة على هذه الأصناف بالتساوي، أنظر: فتح القدير للشـــوكاني – (ج 2 / ص373)

على ما ذكر في الآية وعلى غيرهم بحسب ما يراه الإمام من مصلحة على أساس أن ما ذكر في الآية، إنما ذكر على سبيل المثال لا الحصر[63] وبهذا يمكننا القول أن المشرع الحكيم قد أعطى لولي أمر المسلمين مساحة واسعة تمكنه من العمل على تحصيل أموال للأمة وتوزيعها وفق ما يحقق مصالح الرعية ويراعي متطلباتها.

هذا فيما يخص الأمن الاقتصادي، أما فيما يخص الاستقرار الأمني فقد أرسى القرآن الكريم الإجراءات الضرورية التي من شأنها أن تبني مجتمعا سليما خاليا من الأمراض، فبعد ما راعى علاج المجتمع على مستوى أفراده وجماعته وذلك بغرس قيم ومبادئ جديدة عليه، وتقويم قيم أخرى كانت راسخة في أوساطه أو إقرارها، كما عمل على استئصال الانحرافات التي سيطرت على هذه الأمة زمن الجاهلية، أوكل للحكام مسؤولية تقويم بعض الانحرافات التي يمكن أن تحدث بعد هذا الإصلاح، فشرعت العقوبات[64] وكلف ولاة الأمور بتنفيذها، ولأن الجرائم التي يمكن أن تحدث في أي مجتمع تختلف باختلاف المجتمعات وتعددها، اهتم القرآن الكريم بالنص على الجرائم التي من شأنها أن تهدد استقرار الأمة أو أن تضعف كيانها، مراعيا في ذلك المحافظة على الكليات الخمس[65] فكل ما من شأنه أن يمس بهذه الكليات مجرم في نظر الشارع معاقب عليه،[66]

---

[63] ــ روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني، (ج1/ ص479)

[64] ــ ذكر الطاهر بن عاشور أن مقصد الشريعة الإسلامية من تشريع العقوبة ثلاثة أمور: تأديب الجاني، إرضاء المجني عليه، وزجر المقتدي، ويترتب على هذه المقاصد استقرار الأمة والمحافظة على نظامها. أنظر مقاصد الشريعة الإسلامية، ص/ 205

[65] ــ الكليات الخمس : حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل والمال والنسل، قال الغزالي في بيان هذه الأقسام: " لَكِنَّا نَعْنِي بِالْمَصْلَحَةِ الْمُحَافَظَةَ عَلَى مَقْصُودِ الشَّرْعِ وَمَقْصُودُ الشَّرْعِ مِنْ الْخَلْقِ خَمْسَةٌ : وَهُوَ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَنَفْسَهُمْ وَعَقْلَهُمْ وَنَسْلَهُمْ وَمَالَهُمْ، فَكُلُّ مَا يَتَضَمَّنُ حِفْظَ هَذِهِ الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ فَهُوَ مَصْلَحَةٌ، وَكُلُّ مَا يُفَوِّتُ هَذِهِ الْأُصُولَ فَهُوَ مَفْسَدَةٌ وَدَفْعُهَا مَصْلَحَةٌ " أنظر: المستصفى للغزالي، ص/ 174

[66] ــ منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، محمد السيد يوسف، ص/ 458

وقد اقتصر المشرع الحكيم ذكر الحدود والقصاص[67] دون التعزير[68] الذي ترك لاجتهاد الحاكم.

والحدود والقصاص هي العقوبات المترتبة على جرائم القتل، والعيث بالفساد، وإتلاف الجوارح، والأعضاء، والسرقة، والزنا، وشرب الخمر، والقذف، والردة[69] وقد حدد الشارع الحكيم هذه الجرائم تحديدا ونص عليها على سبيل الاستيعاب، فالقاتل يقتل، وذلك لأن في حماية نفس بشرية واحدة حماية للبشر جميعا لما يترتب عن هذا الاعتداء من تهديد لاستقرار المجتمع بأسره لا تهديد المعتدى عليه فحسب،[70] قال تعالى:﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيع**﴾ (المائدة 32) ويجري نفس الحكم في شرع الله تعالى على من اعتدى على الجوارح وأتلف الأعضاء، قال تعالى:﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ**﴾(المائدة 45)، ومن يعيث في الأرض فسادا بأن يقطع سبيل الناس أو يقتلهم طمعا في أموالهم يحارب بأن تطبق عليه أحد العقوبات المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (المائدة 33) وفي تطبيق الحاكم لهذه العقوبات

---

(67) ـــ الحدود عقوبة مقدرة وجبت حقا لله تعالى زجرا عن ارتكاب ما يوجبها، والقصاص عقوبات شرعت لحماية حق العباد بأن يقتص من الجاني بمثل ما فعل بالمجني عليه أنظر منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، محمد السيد يوسف،ص/456

(68) - "التعزير تأديب استصلاح وزجر على ذنوب لم يشرع فيها حدود ولا كفارات" أنظر: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ابن فرحون - (ج 2 / ص 217)

(69) ـــ الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد، (الجزائر، مطبعة المعارف، بط، بت)، ص85

(70) ـــ المرجع نفسه، ص/58

على سبيل الترتيب أو الاختيار خلاف بين العلماء،[71] وكذا نصت آيات الذكر الحكـــيم علـــى عقوبة السرقة والزنا والقذف، وبينت خطورة

جريمة الردة وشرب الخمر إلا أنها لم تبين نوع العقوبة المقررة لذلك فجاء السنة النبوية لبيانها.[72]

ثالثا) ــ تنظيم العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية:

إن المتأمل في النصوص القرآنية الواردة في هذا المقام يلاحظ وبوضوح الاهتمام الكـــبير الذي أولته في بيان كيفية تعامل المسلمين مع غيرهم من أهل الكتاب والمشركين، سواء كان ذلك في حالة السلم أو حالة الحرب، مستخدمة في ذلك أساليب تدور بين الأمر بالشدة واللين، وبـــين الحزم والمسامحة، ولعل السبب في هذا التباين يعود إلى اختلاف المقامات التي نزل فيها كل خطاب.

---

(71) ــ روائع البيان تفسير آيات الأحكام، محمد على الصابوني، (ج1/ ص479)، قال بعض العلماء أن الإمام مخير في الحكم بين أحد هذه العقوبات، وذهب إلى هذا القول سعيد بن المسيب مجاهد والضحاك وإبراهيم النخعي وعطاء وحكي مثل هذا القول عن الإمام مالك، وقال أن الآية تدل على الترتيب وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي وبهذا القول أخذ الشافعي وغير واحد من السلف. أنظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج2/ ص48)

(72) ــ بين النبي صلى الله عليه وسلم حكم الردة فعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ :"أُتِيَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمْ لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ وَلَقَتَلْتُهُمْ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ** أخرجه البخاري، ك: استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتد (مج4، ج8، ص372، رقم: 6922)، أما حد شارب الخمر فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :" أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ فِي الْخَمْرِ بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ " أخرجه البخاري، وللفظ ل، ك: الحدود، باب ما جاء في ضرب شارب الخمر (مج4، ج8، ص325، رقم: 6773)، وأخرجه مسلم، ك: الحدود، باب حد الخمر،) مج6، ج11، ص218، رقم: 1706)

ففي حالة السلم، بينت آيات الذكر الحكيم أساس العلاقة التي يجب أن تحكم المسلمين مع غيرهم قال تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (الممتحنة 8، 9) ففي هذه الآية بيان منه تعالى بأن النهي عن بر غير المسلمين إنما ورد لعلة نصب العداء والحرب، فإذا انتفت هذه العلة زال النهي،[73] وقد حث الشارع الحكيم النبي صلى الله عليه وسلم على مهادنة المشركين إذا ما مالوا إلى السلم وجنحوا له قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾(الأنفال61) كما أوجب على ولاة المسلمين الوفاء بالعهود وإتمامها إلى وقتها إن كانت مؤقتة،[74] وفي حالة ما إذا صحت النية على إبطالها وجب عليهم إعلام عدوهم بذلك امتثالا لقوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ (الأنفال 58)

أما في أحوال الحرب فقد بينت آيات الكتاب العزيز السبل الواجب على ولاة الأمور اتخاذها حتى يتسنى لهم الانتصار على العدو وإعلاء كلمة الحق، فقد أمرت المؤمنين بإعداد العدة والاستعداد لمواجه العدو ماديا ومعنويا وهو أمر وإن خوطب به كل المؤمنين إلا أن مسؤولية هذا الإعداد تقع على عاتق ولاة الأمور قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾ (الأنفال 60) كما أوجبت الثبات عند اللقاء وحرمت الفرار يوم الزحف إلا أن يكون ذلك لخطة حربية أو أن ينظم إلى طائفة من المسلمين لمعاودة القتال،[75] قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ**

---

(73) ــ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، ص/ 817

(74) ــ فلسفة القرآن العظيم، عباس محمود العقاد، ص/ 80

(75) ــ في ظلال القرآن، سيد قطب، (مج3، 10ج،ص1539)

اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال 15، 16) كما بينت سبل التعامل مع الأسرى وغير ذلك من الترتيبات الواجب اتخاذها بعد نهاية الحرب أو توقفها.

المطلب الثاني: صيغة الخطاب الخاص بمقام الإمامة:

بعد بيان أهم الاختصاصات التي خص بها ولاة الأمور وذكر بعض الآيات المبينة لهذه المهام، يمكن القول أن الخطاب القرآني الذي تضمنته هذه الآيات لم يأت بصيغة واحدة، فقد كلف الشارع الحكيم أئمة المسلمين إما بتوجيه الخطاب نحو النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة الخاص، كونه ولي أمر المسلمين وأول حاكم تولى شؤون الدولة، أو بأن وجهت الأوامر القرآنية إلى عموم الأمة إلا أن تنفيذ ما تضمنته هذه الأوامر موكول لولاة الأمور دون غيرهم.

أولا) ـــ ورود الخطاب بصيغة الخصوص

خاطب النص القرآني النبي صلى الله عليه وسلم في عدة مواضع وكلفه بالقيام بعدة أعمال لم يقصد الشارع الحكيم خصوصيتها به عليه الصلاة والسلام، بل خوطب بها كونه حاكم هذه الأمة وإمامها، فهي أوامر متعلقة بوظائف واختصاصات الإمام، ومثال ذلك قوله تعالى: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**(التوبة103) فالأمر في هذه الآية وجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ أموال الزكاة من المؤمنين وبأن يصلي عليهم، وقد أشكلت صيغة الخصوص الواردة في هذا الأمر على بعض العرب ممن منعوا الزكاة حيث اعتقدوا أنها خاصة به عليه الصلاة والسلام،[76] وبأن المخاطب بها قد مات و لم يقم دليل على قيام غيره في ذلك مقامه، فلا يتأتى ذلك من غيره[77] وقد رد عليهم هذا التأويل الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة معه، حيث قاتلوهم حتى دفعوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال أبو بكر رضي الله

(76) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج2/ 369)

(77) تبصرة الحكام في الأقضية ومناهج الأحكام، ابن فرحون، (ج2/ ص209)

عنه في ذلك:" والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه." [78]

ومن هنا يمكن القول أن أول فتنة حدثت في الدولة الإسلامية بعد وفاته عليه الصلاة والسلام كانت نتيجة الخلط الذي حدث في أذهان بعض من لا تمييز له بين مقامات الخطاب.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ (الأنفال 58) فالخطاب في هذه الآية موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن ينبذ العهد الذي بينه وبين المشركين وبأن يبلغهم بذلك في حالة خوفه من خيانة قد تحدث منهم،[79] ومع ذلك فهذا الأمر ليس خاصا به عليه الصلاة والسلام وحده، بل هو خطاب لكل ولاة أمور المسلمين بأن يمتثلوا أوامر الله تعالى في هذه الآية، وما خوطب النبي بهذه الصيغة إلا لكونه إمام هذه الأمة، قال سيد قطب:" هذه الآيات كانت تواجه حالة قائمة بالفعل في حياة الجماعة المسلمة، عند نشأة الدولة المسلمة بالمدينة؛ وتزود القيادة المسلمة بالأحكام التي تواجه بها هذه الحالة." [80]

ثانيا) ــ ورود الخطاب بصيغة العموم:

خاطبت العديد من الآيات القرآنية الحكام بصيغة العموم التي يؤخذ من ظاهرها أنها متعلقة بكافة المؤمنين، إلا أن تنفيذ الأحكام التي تضمنتها هذه الآيات موكول لاختصاصات الإمام أو من يقوم مقامه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ**﴾ (الممتحنة10) قال الطاهر بن عاشور :" وإذ قد كان المخاطب بذلك النهي جميع

---

[78] ــ أخرجه البخاري،ك: الاعتصام بالكتب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، (مج4، ج8،ص491، 492، رقم: 7285،7284)، ومسلم، ك: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.....، (مج1، ج1، ص239/ رقم: 21)

[79] ــ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص/ 301

[80] ــ في ظلال القرآن،سيد قطب، (مج،3، ج10، ص1539)

المؤمنين كما هو مقتضى قوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ**﴾ إلى آخره، تعين أن يقوم بتنفيذه من إليه تنفيذ أمور المسلمين العامة في كل مكان وزمان، وهم ولاة الأمور من أمراء وقضاة، إذ لا يمكن أن يقوم المسلمون بمثل ما خوطبوا به من مثل هذه الأمور العامة إلا على هذا الوجه..." [81] هذا ويؤكد هذا التوجه اتفاق الروايات وتأكيدها على أن امتحان المؤمنات المهاجرات كان موكولا للنبي صلى الله عليه وسلم[82] رغم اختلافها في بيان الطريقة التي كان عليه الصلاة والسلام يمتحنهن بها، فقيل أنه كان يمتحنهن ما خرجت

كرها لزوج أو فرارا لسبب..ونحو ذلك،[83]وقيل كان يمتحنهن بالبيعة التي بايع بها النساء، بأن لا يشركن ولا يزنين، الآية.[84]

وممّا يمكن التمثيل به في هذا المقام أيضا، قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ الْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾ (البقرة 178) ففي قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ**

([81]) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج11، ج27، ص156)

(82) أنظر جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (مج12، ج28، ص44، 45)

(83) ـــ عن ابن عباس قال:" كانت المرأة إذا جاءت النبي صلى الله عليه وسلم لتسلم حلفها بالله ما خرجت من بغض زوجي ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله" أخرجه الترمذي، ك: تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الممتحنة، (ج5، ص384،رقم:3308)، وقال عنه:"هذا حديث غريب"

(84) عنَ عُرْوَةُ قال :"....فَأَخْبَرَتْنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْتَحِنُهُنَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ إِلَى غَفُورٌ رَحِيمٌ }قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنْهُنَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ بَايَعْتُكِ كَلَامًا يُكَلِّمُهَا بِهِ وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ وَمَا بَايَعَهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ" أخرجه البخاري،ك: الشروط، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام،(مج2، ج3، ص237، رقم:2713)

عَلَيْكُمُ﴾ إشعار بوجوب القصاص على جميع المؤمنين، وهو ما يطرح إشكالا بينه الرازي في تفسيره، إذ القول بوجوب القصاص يقتضي إما وجوبه على القاتل أو على ولي الدم أو وجوبه على شخص ثالث، وقد عمل على بيان فساد هذه الافتراضات، فالقاتل لا يجب عليه قتل نفسه قصاصا بل ذلك محرم عليه،[85] كما أن ولي الدم غير ملزم بأن يقتص من المعتدي بل هو مخير بين القصاص والعفو وأكثر من ذلك فقد رغبه الشارع الحكيم في العفو﴿ **فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ**﴾ (المائدة 45) والقول الثالث باطل أيضا كونه أجنبيا عن ذلك القتل "والأجنبي عن الشيء لا تعلق له به" فاقتضى ذلك أن يكون الإيجاب متعلقا بمعين رغم مجيء الآية بصيغة العموم قال الرازي:" ... أن المراد إيجاب إقامة القصاص على الإمام أو من يجرى مجراه ، لأنه متى حصلت شرائط وجوب القود فإنه لا يحل للإمام أن يترك القود لأنه من جملة المؤمنين، والتقدير: يا أيها الأئمة كتب عليكم استيفاء القصاص إن أراد ولي الدم استيفاءه والثاني : أنه خطاب مع القاتل والتقدير : يا أيها القاتلون كتب عليكم تسليم النفس عند مطالبة الولي بالقصاص وذلك لأن القاتل ليس له أن يمتنع هاهنا وليس له أن ينكر.."[86] وفي التقديرين يبقى تنفيذ القصاص من اختصاص الولي وبأمره.

وبهذا يمكن القول أن الخطاب الوارد في هذه الآية وغيرها من الآيات التي سيقت في مقام إقامة الحدود واستيفاء الحقوق أو ما تعلق بتدبير أمور الدولة وتسيير شؤونها، هي خطابات خاصة بمقام الإمامة سواء ورد الخطاب بصيغة الخصوص أو بصيغة العموم أو بأية صيغة أخرى، كما هو الشأن في بعض الآيات التي لم يوجه فيها الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا إلى عموم المؤمنين، وإنما استفيد بأنها خاصة بمقام الإمامة إما من كون الأوامر المأمور بها يختص الحكام بتنفيذها،وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ** ﴾ (المائدة33) ويظهر اختصاص هذه الآية بمقام الإمامة من أن إقامة الحدود والقصاص لا يتولاها

---

[85] مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج3، ج5، ص44)

[86]ــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج 3، ج5، ص44)

إلا الحاكم أو من يقوم مقامه،[87] كما يمكن أن يعرف مقام الآية من السياق الذي ذكرت فيه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا** ﴾ (التوبة60) فقد استدل العلماء من سياق هذه الآية على اختصاص ولي الأمر بأخذ أموال الزكاة وقد استفادوا ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا**﴾ لأن العامل لا يعين إلا من قبل الإمام أو من يقوم مقامه.[88]

المطلب الثالث: أثر اختلاف العلماء في مقام بعض الآيات

سبقت الإشارة إلى أنه من بين أسباب اختيار هذا التقسيم النتائج الهامة المترتبة عليه في فهم النصوص الشرعية وتفسيرها، وفي هذا المطلب سأذكر بعض النماذج من آيات اختلف في تحديد مقامها وما ترتب عن ذلك الخلاف من أثر، وهي على قسمين: قسم ذهب جمهور الأمة إلى أنه من مقام الإمامة وشذ قوم بمعارضتهم في ذلك، ونوع ثاني فيه خلاف معتبر بين الفقهاء.

أما النوع الأول فقد سبق التمثيل له بقوله تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(التوبة 103) فقد شذ قوم بقولهم أنها خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم،[89] وبأن القرينة الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾ فكان وجوب أداء هذه الأموال مشروطا بالسكن الذي

---

(87) ــ قال القرطبي: لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الامر، فرض عليهم النهوض بالقصاص، وإقامة الحدود، وغير ذلك، لان الله سبحانه طالب جميع المؤمنين بالقصاص، ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص، فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود. أنظر تفسير القرطبي، (ج2/ ص 245)

(88) ــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج8، ج16، ص100)

(89) ــ أنظر ص 86من هذا البحث

يحدث نتيجة لصلاته عليه الصلاة والسلام عليهم، ومعلوم أنه لا أحد يقوم مقامه في حصول هذا السكن، فلما توفي النبي سقط هذا الإلزام عنهم بوفاته.[90]

وكمثال لهذا النوع أيضا قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ**﴾ (النساء 102) فالخطاب في هذه الآية موجه إلى النبي صـــلى الله عليـــه وســـلم، ومقتضي ما يظهر منه أن صلاة الخوف لا تقع على هذه الصفة إلا إذا قام بها النبي عليه الصـــلاة والسلام، وقد تعلق بهذا الظاهر من قال بأن صلاة الخوف. غير جائزة بعد وفاته،[91] واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ**﴾ ففي اشتراط كون النبي عليه الصلاة والسلام مع المـــؤمنين ساعة أداء هذه الصلاة دليل على عدم جوازها حالة غيابه،[92] وممن ذهب إلى هذا الرأي الحسن بن زياد حيث قال بأنها غير جائزة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وهو ما ذهب إليه أبو يوسف في قوله الثاني،[93] والجمهور على خلاف هذا الرأي، وذلك لأن الأئمة بعده عليه الصلاة والسلام خلفاؤه يقومون بما كان يقوم به مقامه،[94] قال الشوكاني:" فهذا خطاب لرسول الله صـــلى الله عليه وسلم ولمن بعده من أهل الأمر في حكمه ، كما هو معروف في الأصول ، ومثله قوله تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً**﴾ (التوبة103)" [95] ويؤكد هذا القول أن العديد من الصحابة رضوان الله عليهم قد أدوا هذه الصلاة بعد وفاته عيه الصلاة والسلام، ومن ذلك ما روي عن سعيد بـــن العاص " أنه كان يحارب المجوس بطبرستان ومعه جماعة من الصحابة منهم الحسن وحذيفة وعبـــد

---

[90] ــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي،(مج8، ج16، ص155)

[91] ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، (مج3، ج3، ص129)

[92] ــ المبسوط (مج1، ج2، ص45)

[93] ــ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (ج1/ ص359)

[94] ــ أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي،(ج1/ ص313)

[95] ــ فتح القدير، الشوكاني، (ج1/ ص508)

الله بن عمرو بن العاصرضي الله عنهم فقال: أيّكم شهد صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة: أنا،فقام فصلى بهؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة و لم يقضوا "[96]

ويعود السبب في هذا الخلاف إلى اختلافهم في النظر إلى هذه الصلاة، فمن رأى أنها خاصة بفضل النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعدم جواز أدائها بعده، ومن قال بأنها عبادة يتولى القيام بها النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره إمام المسلمين أومن يقوم مقامه قال بمشروعيتها.([97])

هذا فيما يخص النوع الأول من الآيات ، أما النوع الثاني وهو ما فيه خلاف معتبر بين الفقهاء، فمن بين الآيات الواردة في هذا المقام قوله تعالى: ﴿**وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً**﴾ (النساء 15) فالخطاب في هذه الآية محتمل بين أن يكون قد وجه للأزواج، أو للأولياء، أو للحكام' [98] فمن قال بأن هذا الخطاب خاص بمقام الإمامة، وبأنه لا يتولى تنفيذ أحكامه إلا الحاكم، فسر البيوت المنصوص عليها بالسجون، على أساس أن الإمساك في البيوت حتى الموت حد من حدود الله تعالى شرع عقوبة للزنا فلا يتولى تنفيذه إلا ولي الأمر أو

---

[96] ـــ أخرجه أبو داود، ك: الصلاة، باب من قال يصلى بكل طائفة ركعة، (مج1، ج1، ص16، 17، رقم: 1246) والنسائي (مج1، ج2، ص167) والحاكم، كتاب صلاة الخوف(ج1، ص485) وأحمد، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، (ج7، ص14، 15) من طريق سفيان عن أشعث بن أبي الشعثاء عن الأسود بن هلال عن ثعلبة بن زهدم الحنظلي " قال الشيخ الألباني:": وهذا إسناده صحيح كما قال الحاكم ووافقه الذهبي وصححه أيضا ابن حبان كما في " بلوغ المرام) ورجاله ثقات رجال مسلم غير الأسود وقد قال ابن حزم أنه صحابي حنظلي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه وروى عنه وجزم بصحبته جماعة منهم ابن أبان وابن السكن ونفى ذلك البخاري وغيره. فالله أعلم ". أنظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، باب: فصل في صلاة المسافر، (ج3/ ص44)

[97] ـــ أنظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد، أبو الوليد ابن رشد، بتصرف، (ج1/ ص188)

[98] ـــ البحر المحيط، أبو حيان، (ج3/ ص57)

من يقوم مقامه، وقد نسخ هذا الحد[99] بقوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾ (النور 2)، وممن ذهب إلى هذا القول سعيد بن جبير فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم[100] والطاهر بن عاشور، وقد استدل ابن عاشور على أن المراد بالبيوت السجون بقوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ** ﴾ (الطلاق 1) ففي حالة قيام المرأة بفاحشة مبينة تخرج من بيتها إلى بيت آخر يعده الحاكم لهذا القصد،[101] أما من قال بأن المقصود بالخطاب الأزواج أو الأولياء فقد أخذ بظاهر الآية وقال بحبس المرأة في بيتها ويتولى ذلك إما الزوج إن كانت ذات زوج أو ولي المرأة عقوبة لها على فعلتها وحتى لا تتمكن من إعادة هذه الفاحشة.[102]

ومن بين الأمثلة التي تصلح لهذا المقام أيضا، قوله تعالى: ﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ (البقرة 194)، فقد اختلف العلماء في تفسير هذه الآية، فذهب ابن عباس إلى أن قوله تعالى: ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ فهذا ونحوه نزل بمكة والمسلمون يومئذ قليل، وليس لهم سلطانٌ يقهرُ المشركين، وكان المشركون يتعاطوهم بالشتم والأذى، فأمر الله المسلمين، مَنْ يجازي منهم أن يجازيَ بمثل ما أُتي إليه أو يصبر أو يعفو فهو أمثل فلما هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأعز الله سلطانه أمر

---

[99]ــ عن ابن عباس في قوله تعالى :"واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم" إلى"أو يجعل الله لهن سبيلا"،كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت، ثم أنزل الله تبارك وتعالى بعد ذلك: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) [سورة النور: 2]، فإن كانا محصنين رجُما.أنظر جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، (مج3، ج4، ص198)

[100]ــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، (مجمج2، ج4، ص456)

[101] ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج2، ج5، ص271)

[102] ــ أنظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج1/ ص437) مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج9/ ص202)، في ظلال القرآن، سيد قطب، (مج1، ج4، ص599)/ ص67)

المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، وأن لا يعدوا بعضهم على بعض كأهل الجاهلية([103]) وقالت طائفة بأن ما تناولته الآية من التعدي بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الجنايات ونحوها لم ينسخ، وأنه يجوز لكل من تعدي عليه في مال أو جرح أن يتعدى بمثله إذا خفي ذلك له ولا شيء عليه عند الله،[104] ذهب إلى هذا القول الشافعي وحكاه الداودي عن مالك وهو ما ذهب إليه ابن المنذر[105] وقد أيد هذا القول ابن العربي حيث قال:" قال علماؤنا: وهذا دليل على أن لك أن تبيح دم من أباح دمك، وتحل مال من استحل مالك، ومن أخذ عرضك فخذ عرضه بمقدار ما قال فيك، ولذلك كله تفصيل: أمّا من أباح دمك فمباح دمه لك، ولكن بحكم الحاكم لا باستطاعتك وَأَخْذٍ لثأرك بيدك، ولا خلاف فيه. وأمّا من أخذ مالك فخذ ماله إذا تمكنت منه،إذا كان من جنس مالك، ....وقد أمنت من أن تعدّ سارقا،وأما إن تمكنت من ماله بما ليس من جنس مالك فاختلف العلماء ؛ فمنهم من قال: لا يؤخذ إلا بحكم حاكم ، ومنهم من قال: يتحرى قيمته ويأخذ مقدار ذلك، وهو الصحيح عندي،وأما إن أخذ عرضك فخذ عرضه لا تتعداه إلى أبويه ولا إلى ابنه أو قريبه."[106] وقال القرطبي:" فمن ظلمك فخذ حقك منه بقدر مظلمتك، ومن شتمك فرد عليه مثل قوله، ومن أخذ عرضك فخذ عرضه، لا تتعدى إلى أبويه، ولا ابنه أو قريبه، وليس لك أن تكذب عليه، وإن كذب عليك، فإن المعصية لا تقابل بالمعصية."[107] وإختاره الشوكاني ورد على ابن عباس قوله بأن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً**﴾ (الإسراء 33) بأن هذه الآية مؤيدة ومؤكدة لقوله تعالى: ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ وليست ناسخة لها، إذ معنى السلطان هنا من التسليط، أي " جعل له تسلطاً

---

[103] ــ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (مج2، ج2، ص166)

[104] ــ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية المحاربي، (ج2/ ص144)

[105] ــ فتح القدير، الشوكاني، (ج1/ ص193)

[106] ــ أحكام القرآن، ابن العربي – (ج 1 / ص 158، 159)

[107] ــ أنظر تفسير القرطبي، محمد ابن أحمد ابن أبي بكر القرطبي، (ج2/ ص360)

يتسلط به على القاتل، ولهذا قال: ﴿ **فَلاَ يُسْرِف فِّى الْقتل** ﴾ (الإسراء 33) وأنه حق مع التسليم بأن معنى الآية الرجوع إلى السلطان كما ذكره ابن عباس فيكون ذلك مخصصا للقتل من عموم الآيات الواردة في هذا المقام[108] وليست ناسخة لها وذلك لأن هذه الآية لم تنص إلا على القتل وحده والآية الأخرى وغيرها شاملة للقتل وغيره من أنواع الاعتداء،[109] وقد خالف هذا القول المالكية في المشهور عندهم، وأبو حنيفة وغيرهم، وقالوا بأن أمور القصاص موكولة للحاكم فلا يتولى تنفيذها إلا هو أو من يقوم مقامه، وكذا مسائل الأموال[110]

هذا ويمكن القول أن من نظر إلى عموم هذه الآية قال بجواز تكفل المعتدى عليه بأخذ حقه ما لم يترتب على ذلك ضرر، وأن من قال بأن مسائل القصاص واستيفاء الحقوق موكولة للحكام فقد خصص هذا العموم بهذا الأصل لم يقل بنسخ الآية وذلك "لأنه لا خلاف بين العلماء أن هذه الآية أصل في المماثلة في القصاص".[111]

المبحث الثالث: مقام القضاء.

لا يختلف هذا المقام عن المقامين السابقين من حيث أن الآيات الواردة فيه قد سيقت أصالة لبيان أحكام بينها الشارع الحكيم يتعلق تنفيذها بمهام واختصاصات القاضي، فالخطاب في هذه الآيات يشمل أحكاما خاصة بكيفية حل الخصومات والمنازعات والتي يتولى القاضي فضها، لذا قسم هذا المبحث إلى ثلاثة عناصر هي:

---

(108) ــ وذلك مثل قوله تعالى: قوله : { فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ } الآية، وقوله { وَجَزَاء سَيِّئَةٍ } [الشورى : 40] الآية، وقوله : { وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ } الآية، [الشورى : 41]، وقوله : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ } الآية [النحل : 126)

(109) ــ فتح القدير، الشوكاني، (ج1/ ص193)

(110) ــ تفسير القرطبي، محمد ابن أحمد ابن أبي بكر القرطبي، (ج2/ 355)

(111) ــ أحكام القرآن، ابن العربي، (ج2/ 358)

المطلب الأول: أهم المواضيع التي تضمنها مقام القضاء

يمكن أن يتبين لمن تطلع في الآيات الواردة في هذا السياق، أنها لم تخرج في معالجتها للمسائل القضائية التي تناولتها عن نقطتين أساسيتين، فهي إما أحكام متعلقة بمواد إجرائية يتبعها القاضي للوصول إلى حل ينهي النزاع المعروض عليه، أو أنها أحكام موضوعية تتولي بيان الحكم الواجب في المسألة.

أولا) ـــ الأحكام المتعلقة بمواد إجرائية:

بينت آيات الذكر الحكيم إجراءات كثيرة يمكنها مساعدة القاضي على حل الخصومات المرفوعة إليه، ولأن أي قاضي يحتاج إلى مصدر تشريعي يعتمد عليه في إصدار أحكامه، فقد وردت نصوص كثيرة تؤكد أن المصدر الرئيسي والوحيد الذي يجب على القاضي إتباعه هو الحكم بما أنزل الله، قال تعالى: ﴿ **وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ (المائدة 49)، وقال أيضا: ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ (المائدة 44) فالحكم بما أنزل الله واجب على كل من تولى سلطة القضاء، قال ابن القيم نقلا عن شيخه ابن تيمية:" الدعاوى التي يحكم فيها ولاة الأمور – سواء سموا قضاة ، أو ولاة ، أو ولاة الأحداث ، أو ولاة المظالم ، أو غير ذلك من الأسماء العرفية الاصطلاحية، ـــ فإن حكم الله تبارك وتعالى شامل لجميع الخلائق، وعلى كل من ولي أمرا من أمور الناس، أو حكم بين اثنين أن يحكم بالعدل، فيحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وهذا هو الشرع المترل من عند الله "[112] فإذا حكم القاضي هذا الحكم وتقيد بما نزل به الشرع، اكتسب حكمه القوة الإلزامية التي توجب على الخصوم قبولها[113]، قال تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ (النساء65) قال ابن عاشور في بيانه لهذه الآية:" وهذا خاص بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يعطي مراتب متفاوتة لمن دون الرسول على حسب قرب حكمه من حكم الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك رجح علماؤنا أن يصرح القاضي في

---

(112) ـــ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم الجوزية، ص/ 108

(113) ـــ القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، ص/53،أنظر الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى،أحمد عبد الرزاق، ص/ 96

حكمه بمستنده فيه تحقيقا لمعنى نفي الحرج من الحكم الشرعي بقدر الإمكان"[114] فالإذعـــان والتسليم المطلوب في هذه الآية هو إذعان لحكم الله تعالى الذي يتولى القاضي تنفيذه.

ومن المسائل الإجرائية التي كانت ولا تزال الأساس الذي يعتمد عليه أي قاضـــي في إثبـــات أحكامه تنظيم مسائل الشهادة، وذلك لما في هذه البينة من أثر فعال في إثبات الحقوق وبيانها، وقد وردت مسائل الشهادة في الكتاب العزيز في ستة مواضع، في طرق إثبات الدين[115]والوصية[116] والطلاق، والرجعة،[117] والزنا،[118] وفيما يدفع الحد عن القاذف،[119] كما بينـــت نصـــوص أخرى الشروط الواجب تحققها في الشاهد حتى يؤخذ بشهادته، منها قوله تعالى: ﴿ **وَأَشْـــهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ**﴾ (الطلاق2)، وقال أيضا: ﴿ **مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ**﴾ (البقرة 282).

ومن الأمور التي يمكن أن تدرج ضمن المواد الإجرائية التي قد يلجأ القاضي إليها لفض بعض النزاعات المعروضة عليه دون اللجوء إلى إصدار حكم في ذلك، مسألة التحكيم، وهي مسألة هامة في المجال القضائي لما لهذه الوسيلة من أثر فعال في الوصول إلى حل النزاع بطرق سلمية،قال ابـــن فرحون:" وأما ولاية التحكيم بين الخصمين فهي ولاية مستفادة من آحاد الناس، وهي شعبة مـــن

---

(114) ـــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/ 194

(115) في قوله تعالى: { وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} (البقرة 282)

(116) ـــ في قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ}(المائدة 106)

(117) ـــ في قوله تعالى:{ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}(الطلاق 2)

(118) ـــ في قوله تعالى:{ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً} (النساء 15)

(119) ـــ في قوله تعالى:{ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور 4)

القضاء متعلقة بالأموال دون الحدود واللعان والقصاص..."[120] ومن المسائل التي آثر الشارع الحكيم فيها وساطة التحكيم، حل النزاعات الزوجية حيث قال: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً** ﴾ (النساء 35) فقد أوكل الله تعالى في هذه الآية للحكمين مهمة الإصلاح[121] بين الزوجين فيما قد يحدث بينهما من شقاق.

هذا وقد وردت بعض النصوص القرآنية المبينة لبعض الإجراءات التي يمكن للقاضي الاستئناس بها في إصدار أحكامه وإن لم يكن الخطاب فيها موجها للقضاة، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (يوسف26،27) فقد استُدِلَ بهذه الآية على جواز الحكم بالقرائن، واعتبرها ابن القيم من المسائل الجليلة التي إن أهملها القاضي أدى ذلك إلى إضاعة الكثير من الحقوق، بشرط أن لا تخرج عن الأحكام والضوابط الشرعية.[122] هذا فيما يخص أهم ما ورد من أحكام إجرائية في القرآن الكريم.

ثانيا) ــ الأحكام المتعلقة بمواد موضوعية:

حددت آيات الذكر الحكيم القواعد الرئيسية التي يجب على القاضي التزامها في إصدار أحكامه، وهي الحكم بما أنزل الله والفصل بين الناس بالعدل، ثم بينت بعد ذلك أن للقاضي سلطة الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص، وهذا ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً**﴾ (النساء 105)، ومن قول النبي صلى الله عليه وسلم:" إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثمّ أخطأ

---

[120] ــ تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام، ابن فرحون، (ج1/ ص18)

[121] ــ اختلف العلماء في حدود سلطة التحكيم إن كانت تقتصر على الإصلاح فقط أو تتجاوز ذلك بحيث يمكن للحكمين التفريق بين الزوجين أيضا، سيذكر هذا الخلاف مفصلا في المطلب الثالث من هذا الفصل، أنظر ص

[122] الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم الجوزية، ص/4

فله أجر واحد "[123] وذلك لأن المسائل التي تعرض للناس تتجدد بحسب تغير الأحوال والأزمان، ومع ذلك فقد بينت العديد من النصوص القرآنية بعض المسائل التي تكفل الشارع الحكيم ببيـــان أحكامها لأنها أمور وإن تغيرت الظروف إلا أنها صالحة لأن تطبق في كل حال، من هذه المسائل: تشريع الخلع بين الزوجين في حالة تفاقم الخصام والخوف من عدم إقامة حـــدود الله،[124] قـــال تعالى: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**﴾ (البقرة 229) فقد

وجه الشارع الحكيم الخطاب للقضاة بأن يتولوا تنفيذ أحكام الخلـــع إذا مـــا عـــرض علـــيهم النزاع[125] و رأت المرأة أن تفتدي من زوجها ببذل شيء من المال يرضى به الزوج.[126]

---

[123] أخرجه البخاري،ك: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (مج4،ج8، ص510، 511، رقم:7352)، ومسلم، ك: الأقضية، باب: بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، (مج6،ج12، ص16، رقم: 1716)

[124]ـــ ذهب أكثر المجتهدين إلى جواز الخلع في غير حالة الخوف والغضب، وقال الأزهري والنخعي وداود بأنه لا يباح الخلع إلا عند الغضب، والخوف من أن لا يقيما حدود الله، فإن وقع الخلع في غير هذه الحالة يكون فاسدا وحجتـــهم في ذلـــك أن هذه الآية صريحة في أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ من المرأة عند طلاقها شيئاً، ثم استثنى الله حالة مخصوصـــة فقـــال : { إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله } فكانت الآية صرالتزوليحة في أنه لا يجوز الأخذ في غير حالة الخوف، وأما جمهور فقالوا بأن الخلع جائز في حالة الخوف وفي غير حالة الخوف واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : { فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْســاً فَكُلُــوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً } [النساء : 4] فإذا جاز لها أن تهب مهرها من غير أن تحصل لنفسها شيئاً بإزاء ما بذلت كان ذلك في الخلـــع الذي تصير بسببه مالكة لنفسها أولى. أنظر: مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج3/ ج6، ص92)، روح المعاني في تفســـير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، (ج2/ ص445)

[125] اختلف العلماء في جواز المخالعة بين الزوجين دون حكم القاضي، سيذكر تفصيل هذا في المطلب الثالث من هذا الفصل، أنظر:ص103، 104

[126]ـــ فتح القدير، الشوكاني، (ج1/ ص238)

كما وضع الشارع الحكيم قاعدة نفيسة تحكم معظم النزاعات التي قد تحدث بين الأفــراد وهي مبدأ المعاملة بالمثل، قال تعالى: ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ (البقرة194) فهذا الخطاب وإن ورد فيه خلاف بــين العلماء ــ سبق بيانه ــ إلا أنهم متفقون على اعتماده في استيفاء الحقوق وإعطائها لأصحابها

المطلب الثاني: صيغة الخطاب الخاص بمقام القضاء:

من خلال تناول بعض النصوص القرآنية الخاصة بهذا المقام وبيان أهم المواضيع التي تضــمنتها، يمكن القول أن صيغ الخطاب الواردة في هذه الآيات قد تنوعت مابين مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة خاصــة باعتبــاره "أول قاضــي تــولى الفصــل في المنازعــات في الدولــة الإسلامية"،[127] كما جاءت بصيغة العموم الذي تشمل في ظاهرها جميع المؤمنين إلا أن تنفيــذ الأوامر الواردة في هذا الخطاب موكول للقاضي.

أولا) ــ ورود الخطاب بصيغة الخصوص:

خاطب النص القرآني النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال لا على أساس أنه نــبي هذه الأمة ومبلغ أحكامها ، بل باعتباره قاض يتولى فض النزاعات التي كانت تحدث زمن التشريع ويتكفل برد الحقوق إلى أصحابها، ومن الأمثلة على هذا القسم قوله تعالى: ﴿ **فَاحْكُمْ بَيْــنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّــهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (المائدة 42) فالخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يحكم بين أهــل

[127] ــ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، أحمد عبد الرزاق، (القاهرة، دار الفكر العربي، ط3، سنة، 1419، 1999)، ص/ 96

الكتاب[128] فيما عرضوه عليه، أو يعرض عنهم وهو مخير في ذلك[129] ورغم أن هذا النص قد ورد بصيغة الخصوص فقد اتفق العلماء على أن هذه الآية ليست خاصة به عليه الصلاة والسلام بل تشمل كل من تنصب للفصل بين الناس،[130] وإن اختلفوا في نسخ هذه الآيـــة، فالـــذين قـــالوا بالنسخ، يقولون بوجوب الحكم بين أهل الكتاب إذا عرض النزاع على القاضي وأن هذا التخـــيير منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (المائدة 49)، وممن ذهب إلى هذا القول، ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والسُّدِّي، وزيد بن أســـلم،[131] وقال آخرون أن الحكم في الآية ثابت وليس في سورة المائدة منسوخ، وحكام المسلمين بالخيار في الحكم بين أهل الكتاب إن شاءوا حكموا وإن شاءوا لم يحكموا، وإن حكموا، حكمـــوا بحكـــم الإسلام، وهو قول النخعي والشعبي وعطاء وقتادة.[132]

من النصوص التي خاطبت النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة أيضا، قوله تعـــالى: ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (المائدة 49) فالنبي صلى الله عليه وسلم خوطب في هذه الآية بصفته قاض يتولى الفصل في المنازعات التي كانت تعرض عليه، قال ابن عبـــاس في سبب نزولها:" إن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال

---

(128) ـــ اختلفت الروايات في سبب نزول هذه الآية، فمنهم من قال نزلت في يهوديين زنيا فجاءوا إلى رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ليسألوه عن عقوبتهما، ذكر هذا السبب الطبري عن ابن عباس، ومجاهد، وعن ابن شهاب، وعن عبد الله ابن كثير، وهو ما قال به الطبري، وصححه ابن كثير، وقيل بل نزلت هذه الآية في قتيل قُتل في يهودَ منهم، قتله بعضهم، روي الطبري هذا القول عن ابن عباس أنه قال:" كَانَ بَنُو النَّضِيرِ إِذَا قَتَلُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَدَّوْا نِصْفَ الدِّيَةِ وَإِذَا قَتَلَ بَنُو قُرَيْظَةَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ أَدَّوْا إِلَيْهِمْ الدِّيَةَ كَامِلَةً فَسَوَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمْ. أنظر جامع البيـــان في تأويـــل القـــرآن، ابـــن جريـــر الطبري(مج4، ج6، ص55)، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج2/ ص55)

(129) ـــ مواهب الجليل من تفسير البيضاوي،" أنوار التتريل وأسرار التأويل"،محمد أحمد كنعان، ص/ 145

(130)، أنظر: فتح القدير، الشوكاني، (ج2/ ص42) بتصرف

(131)ـــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ج2/ 58)

(132) ـــ معالم التتريل، أبو محمد الحسين البغوي، (ج2/ ص32)

بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد عليه الصلاة والسلام لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإن بيننا وبــين قوم خصومة ونحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿**وَاحذَرهُم أَن يَفتِنوكَ عَن بَعــضِ مــا أَنــزَلَ اللهُ إِلَيكَ**﴾ [133] ورغم أن الأمر الوارد في هذا النص قد جاء بصيغة الخصوص إلا أن هذا لا يعني أنه خاص به عليه الصلاة والسلام، بل يشمل كل من تولى الفصل في التراعات التي تحــدث للنــاس داخل الدولة الإسلامية ، فالأمر وجه ابتداءا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما كان فيه من أمــر أهل الكتاب الذين يجيئون إليه متحاكمين، ولكنه ليس خاصا بهذا السبب،[134] قال الجصاص:" ... وقوله : ﴿ **وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿**فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ** ﴾ فيــه تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بالمخاطبة والأئمة بعده مرادون بالحكم معه."[135]

هذا فيما يخص الآيات التي جاءت بصيغة الخصوص أما النصوص الواردة في المقام الثاني:

ثانيا) ــ ورود الخطاب بصيغة العموم: خاطبت العديد من النصوص القرآنية القضاة بصيغة عامة يؤخذ من ظاهرها أنها موجه لعامة المؤمنين، إلا أن الخطاب فيها متلبس بوظائف ومهامــه، ومن بين ما يمكن أن يمثل لذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِــهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً** ﴾ (النساء 35) ورد الخطاب في هذه الآية بصيغة العموم التي يؤخذ من ظاهرها أنها تتعلق بكل من له القدرة على

---

(133) ــ رواه ابن جرير الطبري من طريق أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق قال، حدثني محمــد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال، حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس، أنظر: جامع البيان في تأويل القــرآن، ابن جرير الطبري، (مج4، ج6، ص177)

(134) ــ في ظلال القرآن، سيد قطب، (مج 2، ج6، ص902)

(135) أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص – (ج2، ص262)

التدخل لفض التراع الحادث بين الزوجين،[136] إلا أن تنفيذ هذا الحكم يختص ابتداء بالقضاة، لذا ذهب العديد من الفقهاء إلي القول بوجوب بعث الحكمين من قبل الحاكم إذا ما عــرض عليــه التراع لأنه من باب دفع المظالم الواجبة عليه، قال الشافعي:" فإذا ارتفع الزوجان المخوف شقاقهما إلى الحاكم فحق عليه أن يبعث حكما من أهله وحكما من أهلها"[137]

وممّا يصلح التمثيل به في هذا المقام أيضا قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْـــنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْـــرِكُمْ إِنْ أَنْــتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ** ﴾ (المائــدة 106)، بين الشارع الحكيم في هذه الآية بعض الضمانات التي يمكن اتخاذها لحماية أموال الميت وتوصيلها إلى ورثته عند حدوث مصيبة الموت في حالة السفر،[138] ومن بين هـــذه الإجــراءات حـــبس الشاهدين عند الارتياب منهما حتى يحلّفان[139] على شهادتهما، وقد جاء هذا الأمر بصيغة العموم التي يؤخذ من ظاهرها شموله لكل المؤمنين، بحيث يمكن أن يتولى تنفيذه كل من لـــه المصـــلحة في ذلك، كالورثة أو الموصى إليهم،غير أنه بالعودة إلى فعل النبي صلى الله عليه وسلم حيـــث تـــولى تحليف تميم الدّاريِّ

---

[136] ـــ اختلف العلماء في تحديد المخاطب بهذا الحكم فمنهم من قال بأنه خاص بالحكام، ومنهم من قال بأنه يشمل الحكام والأولياء وغيرهم، ينظر تفصيل هذا الخلاف في المبحث التالي، ص104، 105

[137] ـــ أنظر: الأم، محمد ابن إدريس الشافعي، (مج3، ج 5 ، ص215)

[138] ـــ في ظلال القرآن، سيد قطب، (مج2، ج7، ص993)

[139] ـــ اختلف العلماء في المقود بقوله تعالى:" من بعد الصلاة" فقال "العوفي، عن ابن عباس : يعني صلاة العصر. وكذا قال سعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعِي، وقتادة، وعكرمة، ومحمد بن سيرين. وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وقال السدي، عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما." أنظر: تفسير القرآن العظيم ابن كثير، (ج2/ص106)

وعَديٍّ بن بَدّاء[140] لما ارتاب ورثة الميت في أمرهما، يتبين أن هذا الخطاب وإن جاء بصيغة العموم إلا أن تنفيذه متلبس بمن تولى الفصل في ذلك[141]

هذا ويمكن القول أن كل الخطابات التي خاطبت عموم المؤمنين بأن يحكموا بين النــاس بمــا أنزل الله، وأن يحكموا وبالعدل وغير ذلك من الأوامر الواردة في هذا المقام هي خطابات تتعلق في المقام الأول بمقامات الإمامة والقضاء وإن جاءت بصيغة العموم.

المطلب الثالث: أثر اختلاف الفقهاء في بعض مقامات القضاء:

سبقت الإشارة إلى أن أثر التمييز بين مقامات الخطاب يظهر أساسا على مســتوى تفســير النصوص وبيانها، وذلك لما ينجم عنه من اختلاف في الأحكام تبعا لهذا التباين، ولزيادة توضــيح هذا الأثر سأذكر في هذا القسم بعض الأمثلة المختلف في مقامها بين العلماء مع بيان ما يترتب عن هذا الخلاف.

من بين ما يمكن أن يمثل به لهذه الحال قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ** ﴾ (البقرة229) فالخطاب في هذه الآية محتمل لأن يكون موجها للقضاة، كما يمكن أن يكون متناولا لهم ولغيرهم ممن يصلح للقيام بهذا الدور،[142] لذا اختلف العلمــاء فيمن قصده الشارع بهذا الأمر، فمنهم من قال بأنه خاص بالقضاة، قال بهذا الرأي قتادة فيمــا

---

(140) ــ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:"خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَّاءٍ فَمَــاتَ السَّــهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا مِنْ ذَهَبٍ فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ وُجِدَ الْجَامُ بِمَكَّةَ فَقَالُوا ابْتَعْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ فَحَلَفَا، { لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا } وَإِنَّ الْجَامَ لِصَاحِبِهِمْ قَالَ وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَــوْتُ }، أخرجــه البخاري،ك: الوصايا، باب قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ....} (مج2،ج3، ص269، رقم:2780)

(141) ــ البحر المحيط، أبو حيان، (ج4/ ص395)

(142) ــ البحر المحيط، أبو حيان، (2، ص473) أنظر:المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، (ج2/ ص281) ، فتح القدير، الشوكاني،(ج1/ 38)

أخرجه عنه عبد بن حميد وابن أبي حاتم،[143]، سعيد بن جبير، والحسن، وابن سيرين،[144] وقد اختار هذا القول البيضاوي،[145] والألوسي،[146] وذهب الجمهور إلى القول باحتمالية هذا الخطاب للأمرين،[147] ويترتب على هذا الخلاف أن من قال بأن الخطاب خاص بالقضاة دون غيرهم، قال بعدم جواز إجراء الخلع بين الزوجين دون حكم القاضي، قال قتادة:" إذا كان النشوز والظلم من قبل المرأة فقد أحل الله له منها الفدية ولا يجوز خلع إلا عند سلطان"[148] أما من قال بأن الخطاب محتمل فذهب إلى القول بجواز الخلع دون الترافع عند القاضي لأن الخطاب ليس صريحا للقضاة.[149]

من بين الآيات التي اختلف الفقهاء في مقامها قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَ** ﴾ (النساء35)، فالخطاب في هذه الآية ورد بصيغة العموم و لم يحدد المخاطب بهذا الأمر، فقيل أنه موجه للحكام[150] فلا يتولى تنفيذ هذا الحكم إلا القاضي لأن تنفيذ الأحكام الشرعية موكول إليه،[151] وقد روي هذا

---

[143] ــ الدر المنثور في التأويل بالمأثور، خلال الدين لسيوطي - (مج 1، ج1، ص 672)

[144] ــ أنظر: فتح القدير،الشوكاني - (ج 1 / ص238)،

[145] ــ مواهب الجليل من تفسير البيضاوي"أنوار التنزيل وأسرار التأويل"،محمد أحمد كنعان، ص/ 46

[146] ــ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، (ج2/ ص444)

[147] ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،(مج1، ج2، ص410)،المحرر الوجيزفي تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية المحاربي،(ج2/ 281)

[148] ــ أنظر: الدر المنثور في التأويل بالمأثور، خلال الدين لسيوطي - (مج1، ج2، 672)

[149] ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور - (مج1، ج2، ص410)

[150] ــ البحر المحيط، أبو حيان ، (ج3/ ص629)

[151] ــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج5، ج10، ص84)

القول عن سعيد ابن جبير، والضحاك،[152]، وهو اختيار ابن العربي،[153] ، والجمهور على هـــذا الرأي[154] وقيل أن هذا الخطاب يمكن أن يتولى تنفيذه الحكام أو الأولياء أو غيرهم من صـــالحي هذه الأمة،[155]

من بين النتائج المترتبة على هذا الخلاف أن من قال أن هذا الخطاب موجه للقضاة خاصـــة، قال أن سلطة الحكمين تصل إلى إمكانية الإصلاح والفرقة بين الزوجين فإن رأيـــا أن يصـــلحا أصلحا، وإن رأيا أن يفرقا فرقا، وقد قضى بهذا الرأي عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفّـــان ، وعلي بن أبي طالب ، وقال به ابن عباس،(رضي الله عنهم)، والنخعي ، والشـــعبي ، ومالـــك ، والأوزاعي ،[156]، وهو أحد قولي الشافعي وأحمد [157] أما من قال أن هذا الخطاب ليس خاصـــا بالحكام، اعتبر الحكمين بمثابة وكيلين عن الزوجين فلا يملكان التفريق بينهما إلا بإذنهما، ذهب إلى هذا القول، الحسن البصري، وكذا قال به قتادة، وزيد بن أسلم. ، وأبو ثور،[158] وهـــو القـــول الثاني للإمام أحمد،[159] وبه قال أبو حنيفة،[160] وقد نص على هذا الـــرأي الشـــافعي حيـــث قال:".... فإذا كان هكذا بعث حكما من أهله وحكما من أهلها ولا يبعث الحكمان إلا مأمونين وبرضا الزوجين ويوكلهما الزوجان بأن يجمعا أو يفرقا إذا رأيا ذلك"[161]

---

(152) ــ أحكام القرآن الجصاص - (ج 2/ ص190)

(153) ــ أحكام القرآن، ابن العربي(ج1/ ص539)

(154) ــ تفسير القرطبي، (ج5، ص175)

(155) ــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي(مج5، ج10، ص84)

(156) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (مج2، ج5، ص412))

(157) ــ المغني، ابن قدامى المقدسي، (ج9/ ص645، 646)

(158) ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير - (ج 1/ ص467)

(159) ــ المغني، ابن قدامة المقدسي، (ج9/ ص645، 464)

(160) ــ أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص - (ج 2/ ص191)

(161) ــ الأم، محمد ابن إدريس الشافعي، - (مج3، ج5، ص129)، أنظر: أحكام القرآن للشافعي - (ج 1 / ص212)

وآخر ما يمكن أن أمثل به في هذا المقام قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ﴾ (النساء 6) يتكفل الشارع الحكيم في هذه الآية ببيان الإجراءات الواجب اتخاذهـا حتى يستلم اليتيم أمواله ويضمن حفاظه عليها، حيث أمر بعدم تسليمها له إلا إذا بلـغ النكـاح والتُمِسَ منه الرشد،[162] والمأمور في هذه الآية إما أن يكون الأوصياء، فيكون مقتضى الآيـة أنّ الأوصياء هم الذين يتولَّون ذلك ، "وقد جعله الفقهاء حكماً، فقالوا : يتولّى الوصيّ دفـع مـال محجوره عندما يأنس منه الرشد فهو الذي يتولّى ترشيد محجوره بتسليم ماله إليـه،"[163]، وقـال بعض العلماء أن دفع أموال اليتيم يفتقر إلى أن يرفعه الوصي إلى القاضي،[164] ذهـب إلى هـذا الرأي اللخمي حيث قال:" من أقامه الأب والقاضي لا يقبل قوله بترشيد المحجور إلاّ بعد الكشف لفساد الناس اليوم وعدم أمنهم أن يتواطئوا مع المحاجير ليرشّدوهم فيسمحوا لهم بما قبلَ ذلـك ". وقد رجح هذا القول ابن عطية واعتبر أنه الصواب في أوصياء زمانهم،[165] وقـال الطـاهر بـن عاشور:" وعندي أنّ الخطاب في مثله لعموم الأمّة، ويتولّى تنفيذه مَن إليه تنفيذ ذلك الباب مـن الولاة، كشأن خطابات القرآن الواردة لجماعة غير معيّنين، ولا شك أنّ الذي إليه تنفيـذ أمـور المحاجير والأوصياء هو القاضي، ويحصل المطلوب بلا كلفة"[166]

ويترتب على هذا القول أن من قال أن ترشيد اليتيم يفتقر إلى حكم القاضي، يقول ببطلان تصرفات اليتيم قبل هذا الحكم ما لم يصحح القاضي هذا التصرف، أما من قال بتكفل الوصي بهذا الترشيد فيرى جواز ذلك.

(162) ــ في ظلال القرآن، سيد قطب، (مج1، ج4، ص586)

(163) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج2، ج5، ص242)

(164) ــ المحرر الوجيز، ابن عطية، (ج3/ ص500)

(165) ــ المصدر نفسه(ج3/ ص500)

(166) ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور(مج2، ج5، ص242)

وفي ختام هذا الفصل، يمكن القول أن النتائج الهامة التي تظهر من خلال التمييز بين أنواع المقامات في القرآن الكريم قد تطرح، تساؤلا عن الأصل في هذه المقامات، وعن أيها أولى بالاعتبار في حالة التعارض؟

قبل الإجابة عن هذا التساؤل تجدر الإشارة إلى أنه وبالرغم من أن العلماء قد تحـــدثوا في الكثير من المواضع عن الأصل في أنواع مقامات تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم، وعـــن أيهـــا أولى بالاعتبار من هذه المقامات، إلا أني لم أجد من قسم المقامـــات في القـــرآن الكـــريم بهـــذا الاعتبار،ـــ حسب بحثي المتواضع ـــ ولا من تحدث عن الأصل في المقامات الواردة فيه ، إلا مـــا ذكره إسماعيل الحسيني، (167) لذا سأحاول الإجابة عن هذا التساؤل بناء على ما قاله العلمـــاء في ذلك.

أول ما يمكن أن يستدل به لهذا المقام ما ذكره العز بن عبد السلام عنـــد بيانـــه لقاعـــدة "الحمل على الغالب والأغلب في العادات"، حيث مثل للقاعدة بذكر مقامات تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم وتقسيمها إلى مقام فتيا، ومقام إمامة، ومقام قضاء، وبـــين أن الأصـــل في هـــذه المقامات مقام الفتيا لأنها الغالب من أحواله، فمتى صدر منه عليه الصلاة والسلام تصـــرف حمـــل على هذا الأصل ما لم يدل دليل على خلافه، (168) هذا ما ذهب إليه القرافي أيضـــا في الفـــروق، واستدل على هذا القول بقاعدة " أن إضافة الدائر بين الغالب والنادر إلى الغالب أولى" والغالـــب من تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم الفتوى، (169) كما اعتبر الطاهر بن عاشـــور أيضـــا أن أغلب أحوال تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم ضمن مقام التشريع (170)

---

(167) ـــ صاحب كتاب:" نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور"

(168) ـــ قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عبد العزيز العز بين عبد السلام، (ج2/ ص121)

(169) ـــ أنوار البروق في أنواع الفروق، شهاب الدين القرافي، (ج1/ ص359)، الفرق السادس والثلاثين

(170) ـــ قال الطاهر بن عاشور:" أردت من التشريع ما يؤذن به ظاهر الفعل النبوي أو القول من وجوب أو تحريم مـــع أن المقصود غير ذلك الحكم وإلا فإن الهدي والإرشاد يدلان على مشروعية ما.." أنظر مقاصد الشريعة الإسلامية، ص/ 32

واعتمادا على هذه القواعد يمكن القول أن الأصل في مقامات الخطاب في القــرآن الكــريم أيضا البيان والتبليغ، وذلك لأن الغالب في أحوال الخطاب القرآني أنه أنزل لقصد التبليغ ، ويمكن أن تستفاد هذه الغالبية من كثرة المواضيع التي عالجها، ومن تنوع المقامات التي حواهــا، فمقــام التبليغ يشمل مختلف المقامات التي وردت في القرآن الكريم، من اســتدلال، وتوجيــه، وتعلــيم، وترغيب وترهيب، وتشريع، وغير ذلك من المقامات، التي من شأنها أن تصلح أحــوال الأفــراد وتحقق مقاصد الشارع من سوق هذه الشريعة، قال إسماعيل الحسيني:" ويبدو أن الأصل في مقــام الخطاب الشرعي هو المقام التشريعي، والشفيع في ذلك أمران: الأول أن أحكام الشريعة إنما هــي في الحقيقة وسائل لتحقيق المقصد الشرعي من وضع الشريعة والمتمثل في" إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبدا لله اضطرارا"[171] والثاني تأكيد الطاهر بن عاشور نفسه على أن " أدق مقام في الدلالة وأحوجه إلى الاستعانة عليها مقام التشريع"[172] ويستشــف من ذلك ضرورة توجيه فهم الخطاب الشرعي في ضوء هذا المقام الأصل." [173]

[171] ـــ الموافقات في أصول الشريعة أبو إسحاق الشاطبي، (مج1، ج2، ص379)

[172] ـــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/27

[173] ـــ نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسيني، ص/350

الفصل الثالث: مقام الترغيب والترهيب. طريقته، وسائله، وأنواعه

المبحث الأول: طريقة القرآن الكريم في عرض مقام الترغيب والترهيب

المطلب الأول: اقتران مقام الترغيب بالترهيب

المطلب الثاني: تغليب أحد المقامين على الآخر

المطلب الثالث: ذكر أحد المقامين دون الآخر

المبحث الثاني: وسائل وأساليب مقام الترغيب والترهيب

المطلب الأول: أثر الأمثال في مقام الترغيب والترهيب

المطلب الثاني: أثر القصص في مقام الترغيب والترهيب

المطلب الثالث: أثر ذكر أحوال يوم القيامة في مقام الترغيب والترهيب

المبحث الثالث: أنواع مقامات الترغيب والترهيب

المطلب الأول: أنواع مقام الترغيب والترهيب باعتبار الموضوع

المطلب الثاني: أنواع مقام الترغيب والترهيب باعتبار الجزاء

المطلب الثالث: أنواع مقام الترغيب والترهيب باعتبار علاقته بالأحكام

الفصل الثالث: مقام الترغيب والترهيب، طريقته، وسائله، وأنواعه

سبقت الإشارة إلى أن الخطاب القرآني يتنوع تنوع غاياته ومقاصده وتنوع المقامات التي ورد فيها، فقد خاطب الشارع الحكيم المجتمع الذي نزلت فيه الرسالة بلغة يعرفونها، مراعيا في ذلك، أحوالهم، وعاداتهم، ومتطلباتهم، ولما كانت متطلبات النفس البشرية لا تخرج عن أمرين أساسيين هما:

جلب النفع والسعي لتحصيله، ودرء الضرر والعمل على اجتنابه،[1] راعى الشارع الحكيم هذا الجانب، فخاطبهم بطريقة تتوافق مع هذا الأصل، مستخدما في ذلك أسلوب الترغيب والترهيب الذي اتخذ منه وسيلة فعالة لتحقيق مبادئه وأهدافه، وذلك لما لهذه الأداة من أثر على النفس البشرية التي تحتاج دائما لهذين المقامين.[2]

فمقام الترغيب إذا هو الوسيلة التي استخدمها الشارع الحكيم قصد جلب المخاطبين واستجابتهم لدعوته تعالى وقبول الحق الذي أمر به.

أمّا مقام الترهيب فهو الطريقة التي استعملها الله تعالى لتخويف المخاطبين وتحذيرهم من عواقب عدم الاستجابة له والخروج عن أحكامه.[3]

ويمكن القول أن المتدبر في النصوص القرآنية الواردة في هذا السياق يمكنه أن يلحظ وبوضوح العناية الفائقة التي أولاها الشارع الحكيم لهذا المقام، حيث نص في العديد من الآيات على أن الترغيب والترهيب مقصد من مقاصد التنزيل، نحو قوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ، قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً** ﴾ (الكهف1،2)، وذكر في آيات أخرى أن أساس رسالات الرسل عليهم السلام يقوم على الدعوة إلى الله بهذا الأسلوب، قال تعالى: ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ**

---

(1) ـــ أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، (7/ 69)

(2) ـــ منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، محمد السيد يوسف، 447

(3) ـــ الدعوة إلى الله على بصيرة، عبد النعيم محمد حسين، ص225

الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأنعام48) وقال أيضا: ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً** ﴾ (الكهف56)

ولّما كان مقام الترغيب والترهيب يكتسي هذه الأهمية في نظر الشارع، اخترته كنموذج لهذه الدراسة، وذلك لأنه يصعب الإلمام بجميع أنواع المقامات الواردة في الكتاب العزيز، هذا فضلا على أن هذا المقام يتصل بمختلف المقامات الأخرى ومختلف المواضيع، سواء تعلق ذلك بمقامات خاطب فيها الشارع الحكيم عموم المكلفين ممّن بلغتهم الرسالة، ويدخل هؤلاء ضمن مقام التبليغ ــ كما سبق بيانه ــ أو تعلق الأمر بأوامر وتكاليف يتولى ولاة الأمور أو القضاة تنفيذها وقصد المشرع الحكيم تحصيلها بتوظيف هذا الأسلوب لتحقيق ذلك.

وقد تضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث هي: طريقة القرآن الكريم في عرض مقام الترغيب والترهيب، وسائل الترغيب والترهيب، وأنواع مقام الترغيب والترهيب.

المبحث الأول: طريقة القرآن الكريم في عرض مقام الترغيب والترهيب

والمقصود بطريقة القرآن الكريم، الكيفية التي عرض بها الشارع الحكيم هذا المقام، ويمكن لمن تتبع هذه الطريقة أن يلحظ أنها تتنوع إلى ثلاثة أقسام:

المطلب الأول: اقتران مقام الترغيب بالترهيب:

بأن يذكر الترغيب مقرونا بالترهيب ، وتتبع البشارة بالنذارة ، وهي السمة البارزة على المنهج القرآني لما لهذا الأسلوب من أثر فعال على نفوس المخاطبين،[4] وقد أطبق العلماء على أن شفع الترغيب بالترهيب من خصائص القرآن وعادته،[5] وجزم الشاطبي بأنه ما ورد في القرآن الكريم من ترغيب إلا وقارنه الترهيب " في لواحقه، أو سوابقه، أو قرائنه، والعكس،"[6] واستدل على ذلك بتتبع آيات الذكر الحكيم، حيث وجد بأن القاعدة في ذلك أن لا يذكر ترغيب إلا وأتبعه بترهيب والعكس، على أنه يمكن أن يذكر بصورة متساوية أو أن يغلّب بعضه على بعض وفق ما يقتضيه المقام.[7]

و يمكن القول أن الاقتران الوارد في الكتاب العزيز بين مقام الترغيب والترهيب يأخذ مظهرين أساسيين هما:

المظهر الأول: اقتران الترغيب والترهيب في آية واحدة أو بتتابعهما في آيتين متتاليتين، والأمثلة على هذا النوع كثيرة جدا،[8] من ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾، (الأنعام 147)، وقوله: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (الأنعام **165**)، وقال: ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى**

---

(4) ـــ الكشاف، أبو القاسم الزمخشري، (ج1/ ص 51)

(5) ـــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج2/ ص177)، أنظر: فتح القدير، الشوكاني، (ج1/ ص54)، أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، (ج7/ ص69)،

(6) ـــ الموافقات، الشاطبي،(مج2، ج3، ص249)

(7) ـــ المصدر نفسه، ص، 268، 269، 270

(8) ـــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج2/ 177)

ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الرعد 6)، وقال تعالى: ﴿**غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ** ﴾ (غافر 3)، وقال أيضا: ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ** ﴾ (الحجر50،49)،: ﴿ **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ** ﴾ (البروج 12إلى14)

المظهر الثاني: و يتجلى هذا المظهر في ذكر آيات الترغيب ــ أو العكس ــ عن طريق استخدام جملة من الوسائل المحققة لهذا القصد، نحو ذكر أحوال أهل الجنة وما أعد لهم الله من نعيم وفضل يوم القيامة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ، كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ** ﴾ (لدخان45إلى51)، أو أن يذكِّر المؤمنين بأحوال السابقين من المؤمنين وما عانوه من صعاب، والكيفية التي نصرهم الله وأيدهم بها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ (آل عمران146)، وما إلى ذلك من والسائل المستعملة في هذا المقام، ثم يعقب ذلك بذكر آيات أخرى يُرّهِبُ فيها كلّ من ابتعد عن سبيله أو تخطى حدود ما شرّعه، مستخدما في ذلك وسائل وأساليب لتحقيق هذا الغرض، كبيان أحوال الكفار والمشركين والعاقبة السيئة التي يُردُّون إليها يوم القيامة، نحو قوله تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ (الزمر71)، أو أن يرهبهم بذكر قصص أقوام سبقوهم كانوا أكثر منهم قوة وبأسا فما نفعتهم هذه القوة ولا هذا البأس لما عصوا أمر ربهم واتبعوا أهواءهم، قال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ (الروم9)

هذا ويمكن القول أن استخدام الشارع الحكيم لهذا الأسلوب يقصد من ورائه وضع المتأمل في آيات الذكر الحكيم في حالة وسطى بين الخوف من عذاب الله تعالى وبين رجاء رحمته وعفوه، حتى لا تسيطر عليه الرهبة والخوف ممّا يجعله في ييأس من سعة الله وعفوه فيمضي بذلك

إلى طريق يشتهيها لاعتقاده عدم جدوى الحذر والاستقامة، وحتى لا يمتلأ قلبه أملا في رحمـــة الله ومغفرته وحدها فلا يجد بذلك ما يصده عن المنكرات والانحراف عن السبيل التي رسمها الله تعالى لعباده. [9] هذا ما يمكن أن يستفاد من وصية أبي بكر الصديق لعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما حيث روي عنه أنه قال:" .... ألم تر يا عمر أنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مـــع آية الرخاء ليكون المؤمن راغبا راهبا، لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهـــب رهبة يلقي فيها بيديه. أو لم تر يا عمر أنما ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم فإذا ذكـــرتهم قلـــت إني لأرجو أن لا أكون منهم وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه يجاوز لهم ما كان من سيء فإذا ذكرتهم قلت أين عملي من أعمالهم.....")[10] يقول الشاطبي تعليقا على هذا الأثر:" فإن صح فذاك، وإلا فالمعنى صحيح يشهد له الاستقراء"[11]

---

[9] ـــ من روائع القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص212

[10] ـــ رواه ابن عساكر من عدة طرق: من طريق أبي علي الحداد وجماعة، عن أبي بكر بن ريذة، عن سليمان بن أحمد، عن عمرو بن أبي الطاهر بن السرح المصري، عن يوسف بن عدي الكوفي عن أبي الأحوص عن مالك الأعرابي، ومن طريق أبي غالب بن البنّا، عن أبي محمد الجوهري، أبي عمرو بن حيوة، عن أبي محمد بن صاعد، عن الحسين بن الحسن، عن عبد الله بن المبارك، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن زبيد، وأخرجه عن زبيد أيضا:من طريق عبد اله بن محمد بن الفضل، عن أبي عثمان الصابوني، عن أبي بكر بن زكريا الشيباني، عن محمد الحسن بن الحسين منصور، عن محمد بن عبد الوهاب الفراء، عن أبي أحمد، عن يعلى بن عبيد، عن زبيد، ومن طريق، أبي عبد الله الحسين بن عبد الملك، عن إبراهيم بن منصور، عن أبي بكر بن المقرئ، عن أبي سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم، الجندي، عن أبي يحي المقرئ، عن عيينة بن أبي نجيح، وأخرجه عن أبي نصر محمد بن عبد الله كبرييتي، ، عن أبي بكر أحمد بن الفضل الباطرقاني، عن أبي عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن جعفر البزدي، عن أبي طاهر محمد بن الحسن المحمد ابادي، عن أبي علي حامد بن محمود، عن إسحاق بن سليمان الرازي، قطر بن خليفة، عن عبد الرحمن بن باسط. أنظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر، (ج30/ ص412، 413)

[11] ـــ الموافقات، الشاطبي، (مج2، ج3، ص99)

ثانيا) ــ تغليب أحد المقامين على الآخر

وذلك بأن يذكر الترغيب بصورة آكد وأوضح من الترهيب، أو أن يغلّب الترهيب على الترغيب إذا اقتضى المقام ذلك،[12] ولعل ورود هذا المقام بهذه الصفة يرجع إلى سببين رئيسيين، أما السبب الأول فيعود إلى مراعاة أحوال المخاطبين به، ويعود السبب الثاني إلى طبيعة الموضوع المراد بيانه.

أولا) ــ تغليب أحد المقامين بحسب أحوال المخاطبين:

ويمكن أن يلتمس ذلك من خلال المنهج الذي سلكه القرآن الكريم في مخاطبته للمشركين أو أهل الكتاب المعرضين عن طريق الحق والرافضين اتباعه، فإذا لمس الشارع الحكيم من المخاطبين هذا العزوف وهذا العناد، خاطبهم بأسلوب يتوافق مع هذه الحال، حيث يغَّلِبُ عليهم جانب الترهيب وذلك بأن يكلمهم بطريقة تهز كيانهم وتزلزل عنادهم، نحو قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً، إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ (النساء167 إلى170)، فنسبة الضلال البعيد للكفار، ونفي الهداية عنهم، وتقرير المصير الذي يصل إليه كل من سلك هذه الطريق، كلها أمور استخدمها تعالى في مقام ترهيب من كانت هذه حاله، ثمّ أعقب هذا الترهيب بنداء وجهه لكافة الناس يدعوهم فيه إلى الحق الذي جاءهم من ربهم، وهي دعوة قصد الشارع الحكيم من الأسلوب الذي سلكه فيها، ترغيبهم في الاستجابة لندائه، ويفهم هذا الترغيب من تعدية مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين، لأن الذي يجيء مهتما بقوم يكون حقا عليهم اتباعه، وأيضا من طريق الإضافة في قوله: ﴿ **مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ لما في ذلك من إشعار باختصاصهم بهذا الدين.[13]

---

[12] ــ المصدر السابق، (مج2، ج3، ص250)

[13] ــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،(مج8، ج18، ص282)

هذا فيما يخص الخطاب الموجه نحو المشركين، أما إذا وجه الخطاب للمؤمنين فالأسلوب يتغير، حيث يغلب عليه جانب الترغيب وإن كان الموضوع المأمور به نفسه، نحو قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (النور55) ففي هذه الآية وعد منه تعالى لمن قام بالإيمان وعمل العمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، وأن يمكن له دينهم الذي ارتضاه لهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا،[14] كل هذه الأمور وغيرها مما ذكر في هذه الآيات وسائل استخدمها الله تعالى لترغيب عباد أقروا بالوحدانية لله وشهدوا بصدق الرسالة، فخاطبهم بما يتوافق مع حالهم للثبات على ما هم عليه، ومع ذلك لم تأت هذه الآيات خالية من الترهيب تماما، فقد قال في سياقها، : ﴿ **وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ** ﴾ وهي إشارة منه تعالى إلى أن كل هذا النعيم الموعود به متوقف على البقاء على الإيمان، قاصدا من وراء ذلك تخويفهم من مغبة الابتعاد عن هذا الدين. [15]

هذا ويمكن القول أن الشارع الحكيم لم يقتصر في مراعاته لأحوال المخاطبين على الجانب الإيماني للأفراد أو الجانب النفسي إن صح قول ذلك، وإنما تجاوزه ليشمل الجوانب الحياتية لمجتمع الرسالة قاصدا من وراء هذا النهج إصلاح الفرد والمجتمع على حد سواء، فإذا عالج القرآن الكريم موضوعا من المواضيع السائدة بين المكلفين، راعى في معالجته له مدى ترسخه وفشوه بينهم، ثم يخاطبهم بما يتوافق مع هذا التأثير، ومن الأمثلة التي يمكن الاستدلال بها على هذا النهج قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً** ﴾ (الطلاق1)، يقول سيد قطب تعليقا على هذه الآية والآيات التي تلتها:".... ويقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومخلفاتها، وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب

---

[14] ـــ تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي، ص/544

[15] ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (مج8، ج18، ص282)

والترهيب والتعقيب على كل حكم، ووصل هذا الأمر بقدر الله في السماوات والأراضين، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره، وفي الفرج والسعة لمن يتقونه، وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي، وإيثار الجميل، والإطماع في الخير، والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق ، وفي اليسر والعسر،يقف الإنسان مدهوشاً أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام حتى ليوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشخصه، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين، زيادة في الاهتمام وإشعاراً بخطورة الأمر المتحدث فيه، وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة، والأمر المشدد في كل حكم بالدقة في مراعاته، وتقوى الله في تنفيذه، ومراقبة الله في تناوله، والإطالة في التعقيب بالترغيب والترهيب، إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله! وهو الدين كله! وهو القضية التي تفصل فيها السماء ، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن؛ وتوعد الملتوين والمتلكئين والمضارّين بأعنف وأشد ما يلقاه عاصٍ،....."[16] فالشارع الحكيم قد مزج في هذه السورة بين الترغيب والترهيب، فرغب حيث استلزم المقام ذلك، ورهب حيث دعت الحاجة إلى ذلك أيضا، إلا أنه قد غلب جانب الترهيب، حيث استعمل أسلوب الوعيد والتهديد لكل من تعدى الحدود التي أمر بها، مستعينا في ذلك بالتذكير بما أصاب الأقوام السابقة لما عتو عن أمر ربهم، معتبرا أن المسائل المنصوص عليها من حدوده تعالى التي لا يقبل تجاوزها، ولعل السبب في سلوك هذه الطريقة ـــ حسب ما بينه سيد قطب ـــ يعود إلى حالات واقعة في الجماعة الإسلامية لا تزال تترسب فيها بعض الأمراض من بقايا الجاهلية، ومن ذلك ما كانت تلاقيه المرأة من ظلم وتعنت وتضييق في هذه الحالة، فاستلزم الأمر هذا الحشد الهائل من المؤثرات النفسية لاستئصال هذه الظاهرة. [17]

---

[16] ـــ في ظلال القرآن، سيد قطب، (مج6، ج28، ص3594)

[17] ـــ المرجع السابق، ص/ 3598، بتصرف

من خلال هذه الأمثلة يمكن أن نلحظ أن المشرع الحكيم قد راعي عند سوقه لمقام الترغيب والترهيب أحوال المستمعين، كما راعى في ذلك أيضا طبيعة الموضوع المراد بيانه، وهو ما يتناوله العنصر التالي:

ثانيا) ــ تغليب أحد المقامين بحسب أهمية الموضوع:

وذلك بأن يذكر أحد المقامين أكثر من الآخر، لا لأن أحوال المخاطبين استدعت ذلك وإنما لكون الموضع المعالج يكتسي أهمية في نظر الشارع، فإن أراد حصوله استعمل مختلف وسائل الترغيب لتحقيق هذا القصد، وإن قصد منعه غلب جانب الترهيب في ذلك،[18] ومن الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها في على هذا المقام سورة الأنعام، فقد جاءت تحمل من الترهيب والوعيد ما يتناسب وطبيعة المواضيع التي عالجتها هذه السورة،[19] فالشارع الحكيم عمل في هذه السورة على إبطال ما كان عليه المشركين من ضلالة، حيث جعلوا لله شركاء وأندادا واتخذوا له الصاحبة والولد بغير علم،[20] كما أعرضوا عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ورفضوا تصديقه، رغم جميع الدلائل والحجج الصادقة التي قدمها لهم،[21] بل وأكثر من ذلك استهزؤوا من هذا الدين وعملوا على صد كل من يصغي إليه،[22] كما كانت تحكمهم مجموعة من العادات الفاسدة والمعتقدات الباطلة التي عمل سبحانه وتعالى على بيان ضلالهم فيها، من ذلك تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، كل هذه الأمور تقتضى تأكيد التخويف وإطالة التأنيب وزيادة الترهيب للتأثير في نفوس المخاطبين وصدهم عن هذه المفاسد، ومع ذلك لم تأت هذه السورة خالية تماما من بواعث الترغيب في هذا الدين وبيان رحمة الله تعالى بعباده. [23]

---

[18] ــ الموافقات، الشاطبي، (مج2،ج3، ص250)، بتصرف

[19] ــ المصدر السابق، ص/250

[20] ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج2/ ص116)

[21] ــ تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (ج7/ ص78)

[22] ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ج2/ ص137)، بتصرف

[23] ــ الموافقات، الشاطبي، (ج3/ ص250)

من المواضيع التي غلّب فيها الشارع الحكيم طابع الترغيب على الترهيب باعتبار أهمية الموضوع أيضا، الأمر بالصدقة والإنفاق في سبيل الله، وذلك لأن قوام الأمة على دوران أموالها بينها، وأنّ من أكبر مقاصد الشريعة الانتفاع بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه تجمع بين مراعاة المنفعة العامة واعتبار أحوال الخاصة، بحيث يلاحظ في ذلك العدل مع الذي كدّ لجمع المال وكسبه، واعتبارِ الإحسان للذي بطَّأ به جُهده، لذا عدّ هذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية.[24]

ويمكن أن يلمس هذا الاهتمام من خلال جملة من الآيات الواردة في هذا المقام، منها قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة 261) فقد استخدم سبحانه وتعالى في هذه الآية والآيات التالية المتعلقة ببيان فضل الصدقة وطرق أدائها، مختلف الوسائل والأساليب المرغبة في ذلك، بدءا بالوعد بمضاعفة الأجر وبيان سعة فضل الله تعالى، ثم الوعد بضمان نفي الخوف والحزن عن المنفق، والوعد بالحصول على الحكمة، ونفي الظلم عن كل من أنفق ماله ابتغاء وجه الله، كل هذه الوسائل الترغيبية وغيرها استخدمها الشارع الحكيم في مقام الدعوة إلى الإنفاق لما يعلمه سبحانه وتعالى من طبيعة النفس البشرية الميالة إلى حب المال والإعراض عن إعطائه، ولما كان النص القرآني موجه نحو مجتمع اشتهر عامته بالسخاء والكرم، إلا أنه سخاء وبذل يقصد منه صاحبه الصيت وثناء الناس عليه وتناقل أخباره، فقد وردت في خضم هذه النصوص آيات استخدم فيها الترهيب من مغبة الإنفاق لهذا القصد،[25] فمقام الترغيب إذا غُلِبَ في مجال الدعوة للإنفاق والحث عليه، وغُلِبَ الترهيب في مقام بيان السبيل الواجب اتباعه لقبول هذا الإنفاق.

إضافة لما سبق ذكره يمكن القول أن ثمة جملة من المسائل رجح الشارع الحكيم فيها أحد المقامين باعتبار أحوال المخاطبين من جهة، ولأهمية الموضوع المراد بيانه من جهة أخرى ـــ ولا

---

(24) ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج2، ج3، 44،45)

(25) ـــ في ظلال القرآن، سيد قطب، (ج1/ ص314)، بتصرف

يقصد من هذا القول أن المسائل السابقة روعي فيها أحد الاعتبارين فقط، وإنما لكون الراجح فيها مراعاة أحد الأمرين أكثر من الآخرـــ من هذه المسائل معالجة النص القرآني لموضوع الربا، فقد كان هذا التعامل " شائعا في الجاهلية" وبقي منه في صدر الإسلام قبل التحريم، [26] فجاءت النصوص القرآنية لمحاربة هذه المعاملة مستخدمة في ذلك مختلف أنواع الترهيب، وذلك لما يترتب على هذا الموضوع من أضرار ومخاطر قصد الشارع الحكيم درءها، وقد ذكر الرازي في تفسيره أقوال بعض العلماء في الحكمة من تحريم الربا عدة أسباب منها:

ـــ أن الله تعالى إنما حرم الربا من حيث أنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد سهلت عليه سبل الاكتساب فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والعمل بعد ذلك، مما يؤدي إلى انقطاع منافع الخلق وتعطيل مصالح العباد القائمة على التجارة والصناعة والحرف.

كما أن عقد الربا يؤدي إلى انقطاع المعروف ومنع المواساة بين الناس، وذلك لأن المرابي إذا طابت نفسه بقرض الدرهم واسترجاع ضعفه يمتنع من تقديم القروض للغير بغير مقابل، فيفضي ذلك إلى انقطاع الإحسان والمعروف بين المتعاملين به. [27]

كل هذه الأسباب وغيرها، جعلت النص القرآني يستخدم أسلوب الترهيب ويشدد فيه قاصدا من وراء ذلك القضاء على هذه الآفة، فالناظر إلى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** ﴾ (275، 276) وإلى الآيات التي تلتها، يمكنه أن يلحظ وبوضوح إصراره سبحانه وتعالى على استئصال هذا المرض من جذوره، فقد شبه حال المتعامل به يوم القيامة بحال من يتخبطه الشيطان من المس لما يلاقيه من حيرة واضطراب في ذلك اليوم، ولّما كان قصد المرابي من

---

[26] ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج2،ج3، ص93)

[27] ـــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (ج7، ص86)

هذه المعاملة الزيادة في أمواله، أخبره تعالى بأنه سيعامل بنقيض هذا القصد، فقال: ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾ كما حذره من أن ثباته على الإيمان متوقف على ترك هذا التصرف،[28] حيث قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** (البقرة 278) لينهي كل هذه التهديدات بتوعده بإعلان الحرب عليه، ورغم كل هذه الأساليب والوسائل المستخدمة في هذا المقام، لم يمنع ذلك من ورود بعض الصيغ الترغيبية قصد جلب المخاطبين وحثهم على التوبة والرجوع إلى الله، منه قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ (البقرة281)

المطلب الثالث: ذكر أحد المقامين دون الآخر:

وذلك بأن تشتمل سورة كاملة أو مجموعة من الآيات على مقام الترغيب دون ذكر الترهيب والعكس، وقد اعتبر الشاطبي أن ورود هذا النوع في الكتاب العزيز من الأمور القليلة التي لا تؤدي إلى خرم القاعدة، إذ القاعدة في ذلك أنه ما ورد ترغيب إلا وأتبعه ترهيب والعكس كذلك، سواء كان ذلك بصورة متساوية أو غلب أحد الطرفين على الآخر، وقد أرجع الشاطبي سبب ورود هذا النوع في الكتاب إلى قضايا أعيان، أي أن هذه الآيات وردت في أشخاص معينين ولاعتبارات خاصة،[29] ومن جملة ما يمكن أن يمثل به لهذين المقامين مايلي:

أولا) ــ مقام الترغيب:

من السور التي مثل بها الشاطبي لهذا النوع سورتي الضحى وألم نشرح لك صدرك، وقد اعتبر أنهما لم تحويا أي سمة ترهيبية لأنهما جاءتا في مقام مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، فهي خطابات خاصة به عليه الصلاة والسلام فناسب ذلك انفراد الترغيب،[30] فسورة الضحى مثلا، نزلت في فترة احتبس فيها الوحي عن النبي وهي الفترة التي خشي عليه الصلاة والسلام فيها من

---

[28] ــ تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص/100، بتصرف

[29] ــ الموافقات، الشاطبي، (مج2، ج3، ص252)

[30] ــ المصدر نفسه،ص/ 252

انقطاع الوحي عنه، ولأن هذه السورة قد جاءت بعد نزول جملة من السور السابقة، أي أن أخبار الوحي قد انتشرت وفشت بين المشركين، ممّا جعلهم يتساءلون عن سبب هذا الانقطاع بصورة استهزائية،[31] رد الشارع الحكيم عليهم بهذا الخطاب، قاصدا من ذلك تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية جانبه، فقد ورد في بعض الروايات عن سبب نزولها "أن جبريل احتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت امرأة من قريش أبطأ عليه شيطانه فترت هذه السورة. [32] أما سورة الشرح، فنزلت بعد الضحى، وكأنها تكملة لما تضمنته التي قبلها ، فبعد أن امتن الله سبحانه وتعالى على نبيه وذكره بالنعم التي أنعم بها عليه من إيوائه رغم يتمه، وهدايته بعد ضلاله، وإغنائه بعد فقره، جاء في هذه السورة ليذكره بالنعم المعنوية التي تفضل الله تعالى بها عليه، من شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، مع بيان ما أعده له من نعيم يوم القيامة، [33] ففي ذكر هذه الأفضال، زيادة حث وترغيب في شكر هذه النعم والمواصلة في الدعوة إلى السبيل الذي رسمه له رغم ما قد يلاقيه من صعاب في هذه الدعوة. [34]

ثانيا) مقام الترهيب: من السور التي جاءت تحمل كل معاني التخويف والترهيب ولا تجد بين آياتها أي قدر من الترغيب سورة الهمزة، فالقارئ لهذه السورة قد يأخذه الرعب ممّا أعده الله تعالى من وعيد وسوء عاقبة لكل من كانت هذه أوصافه، بل وقد يبدو له أن الله تعالى قد سد جميع المنافذ وقطع كل السبل أمام هذا الهامز اللامز، وهذا منهج غير متبع في القرآن الكريم، إذ المعهود أن دعوة الله لعباده ومهما كان نوع معصيتهم تحمل نوعا من الأمل والرجاء في عفوه ، بحيث يحصل من ذلك رغبتهم في التوبة والعودة إلى الله ، لذا اعتبر الشاطبي أن القصد من هذه السورة الرد على من آذى النبي صلى الله عليه وسلم وإخباره بما أعده له من جزاء، فهي قضية عين خاصة

---

(31) ـ التحرير والتنوير، (مج12،ج30، ص396)

(32) ـ أخرجه البخاري، ك: التهجد، باب: ترك القيام للمريض، (ج1/ 342، رقم:1124)، مسلم، ك: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم، (مج6،ج12، ص149،رقم:1797))

(33) ـ أضواء البيان، محمد أمين الشنقيطي، (ج9/ ص، 279، 280)

(34) ـ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (ج30، ص150)

بشخص قرر سبحانه وتعالى مصيره. [35] وسواء كانت هذه السورة خاصة بقضية عين كما اعتبره الشاطبي، أو أنها خطاب عام قصد منه تعالى الترهيب من هذه الأوصاف، يمكن القـــول أن ورود سورة أو سورتين في الكتاب العزيز بهذا الأسلوب لا يمنع من أن الأصل في ذلك اقتران الترغيـــب بالترهيب في أكثر الأحوال. قال الشاطبي:"إن الأمر العام والقانون الشائع هو ما تقدم فلا تنقضـــه الأفراد الجزئية الأقلية لأن الكلية إذا كانت أكثرية في الوضعيات انعقدت كلية واعتمدت في الحكم بها وعليها...." [36]

المبحث الثاني: وسائل وأساليب الترغيب والترهيب

إن المتمعن في النصوص القرآنية الواردة في هذا المقام يمكنه أن يلحظ وبوضوح ذلك التنـــوع والتعدد في الوسائل والأساليب التي اتخذ منها الشارع الحكيم مادة لتحقيق هذا القصـــد، مراعيـــا بذلك أثر هذا التنوع على النفوس البشرية وقوة تأثير كل أسلوب بحسب مـــا تقتضـــيه أحـــوال المخاطبين وما يستدعيه المقام، ومن جملة ما استخدمه سبحانه وتعالى في ذلك: ضـــرب الأمثـــال، وسرد قصص وأخبار الأولين، وذكر أحوال يوم القيامة، هذا ولا يقصد من ذكر هـــذه الـــذرائع حصر وسائل الترغيب والترهيب في هذه الأنواع، وإنما هي نماذج سيقت لكثرة ظهورها في النص القرآني ولقوة تأثيرها على النفوس البشرية، ويمكن بيان ذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: أثر الأمثال في تحقيق مقام الترغيب والترهيب

والمثل في القرآن الكريم وسيلة استخدمها سبحانه وتعالى ليبرز من خلالها المعنى المعقـــول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس فيتقبله العقل، وذلك لأن المعاني المعقولة يصعب استقرارها في الذهن ما لم تصغ في صورة حسية قريبة للفهم. [37]

---

[35] ـــ الموافقات، الشاطبي، (مج2، ج3/ ص252)

[36] ـــ المصدر السابق، (مج2، ج3/ ص271)

[37] ـــ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص275

لهذا السبب اعتنى المنهج الإلهي بتوظيف الأمثال في تقرير مبادئه وتثبيت معانيه وتأكيد أحكامه، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أهمية هذا الباب في العديد من النصوص منها: ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ (العنكبوت43) وقوله أيضا: ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ (الزمر27)، وللعلماء كلام جيد في بيان الأمثال القرآنية يبرز مدى وعيهم وإدراكهم لأهمية هذا الأسلوب، فقد عده الشافعي ضمن العلوم الواجب على المجتهد معرفتها،[38] وذكر الزركشي أن الحكمة من ذكر المثل تعليم البيان، وبأنه من خصائص هذه الشريعة، [39] وقال الزمخشري:" ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد...." [40] وتأكيدا لأهمية هذا النوع قال الرازي :" ..... أن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل وذلك في نهاية الإيضاح ، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل بالنور، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، ...." [41] وبهذه الأقوال يتبين أن للمثل أثرا واضحا في التأثير على النفس البشرية، ممّا يؤدي إلي تحقيق ما قصده سبحانه وتعالى من معاني الترغيب والترهيب، ويمكن القول أن إيراد المثل في النصوص القرآنية أخذ مظهرين بارزين أحدهما: التمثيل بالأمور المشاهدة للمكلف، والثاني التمثيل بالأحوال الذاتية، وهي على النحو التالي:

أولا) ــ الترغيب والترهيب بالأمثال المشاهدة

---

[38] ــ أحكام القرآن، محمد ابن إدريس الشافعي، (ج1/ ص22)

[39] ــ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، (ج1/ ص572)

[40] ــ الكشاف، أبو القاسم الزمخشري (ج1/ ص37)

[41] ــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي،(مج1، ج2، ص75)

وذلك بأن يعالج سبحانه وتعالى موضوعا من المواضيع ويمثل له بأمور معهـــودة عنـــد المخـــاطبين مشاهدة لهم، سواء تعلق الأمر بذكر أحوال طبيعية أو أمور إنسانية، كأن يمثـــل بالســـحاب أو الرياح أو بنوع من أنواع الحيوانات أو الحشرات، أو أن يقرن الترغيب أو الترهيب بالتمثيل لخصلة من الخصال الإنسانية التي تتوق النفس لتحصيلها، أو تنفر الطباع من التشبه بها، والأمثلة من هـــذا النوع كثيرة جدا، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْـــدٌ وَبَـــرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ، يَكَادُ الْبَـــرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَـــاءَ اللَّـــهُ لَـــذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة19،20) ضرب سبحانه وتعـــالى في هذه الآيات للمنافقين مثلين يدل كل واحد كمنهما على أحوال المنافقين في تحلّيهم بظاهر مـــن الدين لكسب غنائمه واتقاء مغارمه والنهاية التي يصلون إليها نتيجة هذا التوجه،[42] فشبه حـــالهم في المثل الأول بحال الذي كان في ظلمة عظيمة،وحاجة شديدة إلى النار فاستوقدها من غيره، فلما أضاءت هذه النار ما حوله وتحقق له الأمن الذي كان يبحث عنه وانتفع بمنافعهـــا، أذهـــب الله بنوره فذهب عنه ذلك النور وذهب معه ذلك الأمن، وعاد ما حوله إلى ظلام وبقي يتيـــه بـــين الوحشة والحسرة،[43]

ومثل حالهم في المثل الثاني بحال من أصابه مطر غزير في ليلة ظلماء، فيها رعـــد وبـــرق،[44] إذا أومض عليه البر ق كاد أن يتخطف بصره، وإذا داهمه قصف الرعد جعل أصبعيه في أذنيه مخافتـــه واتقاءه، ومع ذلك يحاول أن يستفيد من ومضات النور الذي يلمع له من حين لآخر، فيســـر في ضيائه إذا أومض، ويتوقف إذا أظلم،[45] وقد قصد سبحانه وتعالى من هذه الدقة في الوصف، بيان أحوال المنافقين وما هم عليه من تردد بين مظاهر الإيمان وبواطن الكفر، وما ينجم عن هذا النفاق

---

[42] ـــ من روائع القرآن، سعيد رمضان البوطي، ص/184

[43] ـــ تيسير الكريم الرحمن، ص/ 30

[44] ـــ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص/294

[45] ـــ من روائع القرآن، سعيد رمضان البوطي، ص/184

من سوء عاقبة،[46] بصورة محسوسة ترهب كل من اتصف بهذه الأوصاف من البقاء علي ما هو عليه، وكل من سولت له نفسه من أن يسلك هذا المسلك من التفكير فيه.

ومنه قوله أيضا: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ (العنكبوت41) فقد بين الشارع الحكيم في هذه الآية صورة من اتخذ من دون الله آلهة يعبدها ويرجو نفعها من خلال تصويره لحال العنكبوت اتخذت بيتا يقيها من الحر والبرد،[47] مشيرا بذلك إلى أن الركن الذي يعتمد عليه المشركون إنما هو من صنع أيديهم وأحلامهم، فهو في الحقيقة لا يملك لنفسه فضلا عن غيره نفعا ولا ضرا، [48] والعنكبوت أمر كائن قائم في البيئة الإنسانية، وهو بهذا التمثيل يوظف العناصر البيئية لينقل لنا صورة دقيقة عن حال المشرك الذي لم يمكنه تفكيره وعناده من أن يبني لنفسه أساسا سليما يستطيع أن يستتر به من أهوال يوم القيامة،[49] ﴿ **وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ**﴾ فهم بهذا التمثيل يضيفون إلى ضعفهم ووهنهم،الجهل والغفلة ، لكونهم عاجزون حتى عن إدراك البديهي المنظور.

من الأمثلة التي استعملها سبحانه وتعالى في مقام الترغيب قوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ،تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ (إبراهيم25،24) فقد مثل سبحانه وتعالى من اتصف بالإيمان ونهج نهجه بشجرة طيبة،ثم بدأ في بيان أوصاف هذه الشجرة، فذكر بأن أصلها ثابت آمن من الانقلاع بسبب رسوخ جذورها في الأرض، وفرعها مرتفع إلى الهواء بعيد عن ما يمكن أن يفسده أو يدنسه، ليذكر بعد ذلك المنافع التي يمكن أن تجنى من هذه الشجرة، فقال بأن أكلها متوفر في كل حين دون تحديد منه تعالى لهذا الوقت،[50] وبعد هذا البيان نبه سبحانه

---

[46] ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج1،ج1، 310، 311)

[47] ـــ من أساليب البيان في القرآن، محمد علي أبو عمدة، ص/77

[48] ـــ القرآن ونصوصه، عدنان زرزور، ص/282

[49] ـــ من أساليب البيان في القرآن، محمد علي أبو عمدة، ص/77

[50] ـــ فتح القدير، الشوكاني، (ج3/ 106)

وتعالى على عظم هذا المثل حتى يؤدي المقصد منه،[51] وذلك لأن في ذكر هذه الشجرة وبيان منافعها تشبيه قصد منه تعالى بيان للآثار المترتبة على الإيمان في نفوس متبعيه، فوصف رسوخ إيمانهم برسوخ جذور الشجرة، وعلو عملهم بفروعها العالية في السماء، وبين بأن فضل هذا العمل كالثمر الدائم العطاء الغير منقطع،[52] ففي بيان هذه الأوصاف الشريفة ترغيب لكل عاقل حتى يسعى لتحصيلها والتخلق بها.

ثانيا)ـــ الترغيب والترهيب بالتمثيل بأحوال النفس:

ويتحقق هذا القصد من خلال توظيف أمور نفسية يتوق المخاطب لها أو ينفر منها، كأن يمثل له سبحانه وتعالى بما لا يحبه على نفسة أو أن يرغبه بفعل ما يحب لنفسه، وهذا النوع في القرآن الكريم أقل من النوع السابق، ومن الأمثلة التي تصلح لهذا المقام قوله تعالى: ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ (البقرة266), فقد ذكر سبحانه وتعالى هذا المثل في سياق بيان فضل الصدقة والتحذير من تضييع أجرها، فنبه المؤمنين على ضرورة المحافظة على أعمالهم وعدم إضاعتها، مستعملا في ذلك أسلوب التمثيل الذي قرب من خلاله صورة من ملك هذا البستان ثمّ أضاعه

---

(51) ـــ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (ج4/ ص184)

(52) ـــ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية،(ج8، ص233)

بصورة من عمل عملا صالحا ثمّ ضيعه،[53] أو صورة من عمل هذا العمل إلا أنه لم يقصد به وجه الله،[54] فقال: ﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ** ﴾ محذرا بهذا الوصف الذي أراد منه تقريب الصورة حتى كأن الممثل له هو صاحب الجنة، ليتصور إحساسه ساعة هذا البلاء، ثمّ يواصل في ذكر المشبه به فيقول: ﴿ **أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ**﴾ هذه الجنة التي حوت جميع مظاهر الجمال والحسن من امتلائها بالنخيل والأعناب، وجريان الأنهار من تحتها، وتنوع الثمرات الموجودة فيها، كل هذه النعم تجعل من صاحبها في سعادة وراحة، إلا أن صاحب هذا البستان قد فقد القدرة السابقة التي مكنته من إنجاز هذا العمل، فقد أصابه الكبر كما أنه لم يخلف ذرية قوية تستطيع القيام بهذا العمل مكانه، فإذا ما ضاع هذا الجهد بكارثة يسلطها سبحانه وتعالى عليه وانعدم الأمل في إمكانية إصلاحه، كان وقع كل ذلك ممّا يصعب تحمله، كل هذا الوصف والتشخيص له من الأثر في نفوس المخاطبين ما يحول بينهم وبين تضييع أجر أعمالهم لما يولده من الرهبة والخوف من مغبة هذا الفعل. [55]

ومن الأمثلة التي تصلح لهذا المقام أيضا قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** ﴾ (الحجرات12) فقد أورد سبحانه وتعالى النهي عن الغيبة من خلال وصف مشهد تتأذى منه أشد النفوس قسوة وأقل الأرواح حساسية،

---

(53) ـــ ذكر البخاري في تفسير هذه الآية، فيما رواه عن ابن عباس أنه قال:" قال قال عمر رضي الله عنه يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيم ترون هذه الآية نزلت:{ أيود أحدكم أن تكون له جنة }، قالوا الله أعلم فغضب عمر فقال قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين قال عمر يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك قال ابن عباس ضربت مثلا لعمل قال عمر أي عمل قال ابن عباس لعمل قال عمر لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله" أنظر صحيح البخاري، ك: التفسير، باب: " أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب إلى قوله لعلكم تتفغكرون"،أنظر صحيح البخاري، ك: التفسير (مج3، ج5، ص195،195، رقم:4583)

(54) ـــ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (مج3، ج3، ص53) بتصرف

(55) ـــ تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي، ص/ 97

مشهد الأخ يأكل لحم أخيه، وهو أمر تفر منه الطباع إن رأته عن بعد، فما بالك بتحقيق هـذا الوصف عند المخاطب بحيث يشعر وهو يسمع هذا النص بأنه يتناول لحم أخيه ميتا إذا ما اغتابه، [56] فكما أن أكل لحم الميت من الأمور التي تنفر منها الطباع وتأباها، فكذلك الغيبة من الأمور التي يرفضها الشرع ويأباها.

المطلب الثاني: أثر القصص في مقام الترغيب والترهيب:

ويقصد بالقصص في القرآن الكريم، ما ورد فيه من أخبار عن أحوال الأمم الماضية والنبـوات السابقة والحوادث الواقعة[57] قصد تحقيق الغرض الكلي الذي جاءت لأجله الرسالة،[58] وذلـك لأن الذكر الحكيم كتاب هداية ربانية نزل قصد إرشاد العباد لخالقهم والعمل على تحقيق مقصـد العبادة التي لأجلها خلقوا،[59] فالنص القرآني لا يقصد من ذكر القصص وأخبار الأولين سـرد تاريخ هذه الأمم، بدليل عدم اعتناءه بتفاصيل هذه الوقائع وعدم ترتيبها من حيث الذكر، وإنمـا قصد من ذلك التنبيه على سنن الله تعالى في خلقه وبيان أثر أعمـال الخـير والشـر في الحيـاة الإنسانية،[60] هذا ما نص عليه سبحانه وتعالى في العديد من المواضع نحو قوله: ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِـي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (الأحزاب68)، وقوله أيضا: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ (آل عمـران137)، أي أن الغرض من عرض أحوال الأولين النظر، والتفكر، والاتعاظ، وقد نبه العديد من العلماء علـى ضرورة معرفة المقصد الحقيقي من هذه القصص، قال الغزالي:" .... وأنّ من سمع قصص الأولـين والأنبياء علم أنّ السمر غير مقصود، وإنّما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليـه،

---

[56] ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، (مج6، ج3347،26)

[57] ـ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص/ 316

[58] ـ من روائع القرآن، سعيد رمضان البوطي، ص/191

[59] ـ تأملات قرآنية، موسى إبراهيم الإبراهيم، ص/ 157

[60] ـ محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، (ج1/ ص114)

فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم ولأمته....." [61] هذا ويمكن لمن استعرض ما قصه سبحانه وتعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أن يلحظ ما تحمله هذه الأخبار من بواعث للخوف والترهيب، ومجالب للرجاء والترغيب، وإن كانت بواعث الترهيب هي الأغلب، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن جملة هذه الخطابات وجهت نحو المشركين قصد دعوتهم للتوحيد والتصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كانت طباعهم تحمل من القسوة والجحود ما لا يمكن لمقام الترغيب أن يؤثر فيه، خاطبهم بما يتوافق مع هذه الحال، وذلك بأن ذكرهم بما كانت تملكه الأمم السابقة من قوة وكثرة عدد، إلا أن هذه القوة وهذه الكثرة لم تقهم ـــ لما توفرت فيهم دواعي الإيمان ولم يؤمنوا ـــ من عذاب الله وسخطه،[62] ويمكن القول أن قصص وأخبار الأولين في القرآن أخذ مظهرين أساسيين: الاستعانة بقصص الأنبياء والمرسلين، وقصص الأحداث الغابرة.

أولا) ـــ الترغيب والترهيب بقصص الأنبياء والمرسلين

ويتضمن هذا النوع بيان دعوة الأنبياء والرسل إلى أقوامهم والمعجزات التي أيدهم الله بها وموقف المعاندين من هذه الدعوة مع بيان مراحلها وعاقبة كل من المؤمنين والمكذبين، والقصص من هذا النوع كثيرة في القرآن الكريم، كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السلام[63]

من السور التي استخدمها سبحانه وتعالى قي مقام الترهيب وزرع الرعب في نفوس المخاطبين سورة القمر، حيث عرض فيها مجموعة من القصص السريعة المتتالية سيقت لبيان جبروته تعالى وبالغ قدرته،[64] ويمكن أن يلحظ هذا القصد من تكراره لبعض الآيات وسوقها إثر سرد كل قصة من قصص العذاب والانتقام، فبعد أن بين سوء مصير قوم نوح وما أصابهم نتيجة عنادهم وكفرهم وصوّر هذا العذاب للمخاطبين كأنه محيط بهم لا يستطيعون رده، أتبعه بالضغط

---

[61] ـــ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (ج1/ ص268)

[62] ـــ سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، التهامي نقرة، ص/ 450، (بتصرف)

[63] ـــ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص/ 317

[64] ـــ من روائع القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص/193

على حسهم وهزه بالتعجب من شدة هذا العذاب،[65] فقال: ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ**﴾ (القمر16) وفي ذلك تعريض منه تعالى على أنه قادر على أن يلحق بهم من العذاب ما ألحقه بقوم نوح إن لم ينتهوا عن كفرهم، ثم بعد هزه لهذه المشاعر وزرعه فيها من الرعب ما يمنع صاحبها من زيادة المكابرة والعناد، جاء ليعرض عليهم الدعوة إلى التدبر في القرآن واتباعه[66] بقوله: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** ﴾ (القمر17) وهكذا ذكرت باقي القصص التي بين فيها تعالى عظيم قدرته على من عصاه وشدة وجبروته، هذا ويمكن القول أن السورة شنت من أولها لآخرها حملة رهيبة مفزعة على قلوب المكذبين، وفي الوقت نفسه حملت طمأنينة عميقة للقلوب المؤمنة المصدقة0[67]

ومن السور التي ذكرت في مقام الترغيب سورة "ص" فقد سيقت هذه السورة لترغيب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه في الصبر على ما يلقاه من تكذيب وصد واستهزاء، فقال سبحانه بعد أن توعد المشركين وهددهم: ﴿**اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ (ص17) وهي دعوة منه تعالى لنبيه يحثه فيها على الصبر والثبات لمواجهة ما يعانيه من قومه، مقرونة بذكر آثار رحمته على رسله والنعم التي أغدقها عليهم من ملك وسلطان ورعاية وإنعام[68] بعد ما عانوه من صعاب وهموم، ليعلم أنه كان لكل واحد منهم هما يشغله وحزنا يؤرقه، ولأنهم استحقوا هذه الدرجات بقدر ما تحملوه وصبروه، وبقدر العبادة التي عبدوها والطاعة التي قدموها،[69] فهو امتحان منه تعالى لعبده سبق أن امتحن فيه باقي الأنبياء والرسل ، ووعد منه تعالى لنبيه بالنصر والفوز على أعدائه على غرار ما قدمه لمن سبقوه،[70] وفي ذلك من الترغيب له وللمؤمنين معه ما يمكنهم من مواصلة الدعوة والثبات عليها لتيقنهم من النتائج0

---

[65] ـ في ظلال القرآن سيد قطب، (مج6، ج27، ص3442)

[66] ـ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج11، ج27، ص187)

[67] ـ في ظلال القرآن سيد قطب، (مج6، ج27، ص3442)

[68] ـ المرجع نفسه، (مج5،ج23، ص3016)

[69] ـ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي، (مج13، ج26، ص169)

[70] ـ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري(مج10، ج23، ص76)

هذا فيما يخص المظهر الأول من مظاهر توظيف القصص في مقام الترغيب والترهيب، أما المقام الثاني فيمكن أن يمثل له بمايلي:

ثانيا) ــ الترغيب والترهيب بقصص الأحداث الغابرة:

وهو قصص يتعلق بأحداث غابرة حدثت لأشخاص لم تثبت نبوتهم، أو أناس ارتكبوا ما استحقوا عليه العقاب والغضب، أو أن تذكر أخبار مجتمع من المجتمعات البائدة، نحو قصة طالوت وجالوت، وأهل الكهف، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب السبت،وغيرهم،[71] قصد التذكر والاعتبار وفق ما اقتضاه السياق القرآني. [72]

من بين ما يمكن أن يمثل به لهذا المقام قصة أصحاب الكهف، فقد بدأها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ، هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً**﴾ (الكهف13إلى15)، فهم فتية انفردوا عن أقوامهم بالإيمان بالله عز وجل إيمانا عميقا ثابتا مخالفين ــ على قلتهم ــ ما كان عليه سائر القوم من شرك وكفر، [73] فاستدعت حكمته تعالى أن يجازي هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وذلك بأن يزيدهم هدى على هداهم، وإيمانا على إيمانهم، وأن يربط على قلوبهم ويثبّتهم على الطريق الذي اختاروه، ويصبّرهم على الصعاب التي واجهوها،[74] ثمّ شرع في بيان العناية الإلهية التي رافقت هؤلاء الفتية طيلة رحلتهم بدء من تركهم لأقوامهم وعزمهم على الثبات على ما هم عليه من الحق، مرورا بالحالة التي كانوا عليها في الكهف وكيف كانت عنايته سبحانه وتعالى محيطة بهم، وصولا إلى ما انتهوا إليه وكيف أيقضهم الله سبحانه وتعالى وأطلع الناس على حالهم، لتتحول هذه الحال من الفرار والخوف من الاضطهاد

---

(71) ــ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان،ص/317

(72) ــ تأملات قرآنية، موسى إبراهيم الإبراهيم، ص/175

(73) ــ من روائع القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص/196

(74) ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير]، (ج3/ ص73)

إلى أن قال الذين عثروا عليهم[75]: ﴿ **لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا** ﴾ (الكهف21) وهذه القصة وإن كانت نزلت للرد على المشركين محاولتهم تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم وبيان عدم صدق رسالته،[76] إلا أنها تحوي في طياتها بوادر ترغيبية للمؤمنين بالثبات على إيمانهم والصبر على ما يصيبهم من أقوامهم حتى يأتي فرج الله ونصره.

ومن الأخبار التي أوردها سبحانه تعالى في مقام ترهيب المشركين وتخويفهم قصة "أصحاب الجنة" فقد عرضت هذه القصة في سياق تكذيب المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم واتهامهم إياه

---

(75) ـــ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، ص/ 447

(76) ـــ قال الطبري فيما رواه عن ابن عباس:" بعثت قريش النضر بن الحارث، وعُقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصِفُوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهودَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فَرَأوا فيه رأيكم: سلوه عن فِتية ذهبوا في الدهر الأوَّل، ما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك، فإنه نبيّ فاتَّبعوه، وإن هو لم يخبركم، فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضْر وعقبة حتى قَدِما مكة على قريش، فقالا يا معشر قريش: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهودَ أن نسأله، عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُخْبِرُكُمْ غَدًا بِمَا سألْتُمْ عَنْهُ، ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة، لا يُحدِث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام،" وبعد أن حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وَعَدَنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام، من الله عزّ وجلّ، بسورة أصحاب الكهف...." جامع البيان في تأويل القرآن (ج15/ ص127، 128)، أنظر لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ص/189

بالجنون، لاسيما كبراءهم المغرورين بأموالهم والمتعجبين بأولادهم، فوصفهم سبحانه وتعالى في هذه السورة بعيوب لم يوصف بمثلها أحد،[77] حيث قال: ﴿ **وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ، هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ، أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾ (القلم10إلى16) ثمّ شرع في ذكر قصة أصحاب الجنة وما ابتلاهم به تعالى من أموال، إشارة إلى أن ما بين يدي مشركي قريش من أموال وبنين قد يلقى نفس المصير الذي لقيه أصحاب هذه الجنة، وأن هذا النعيم إنما هو ابتلاء منه تعالى فقال: ﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ**﴾ (القلم17)، فأصحاب الجنة شركاء في ضيعة كان لهم فيها جنات، وزروع، ونخيل، وكان في هذه الضيعة حق للمساكين والسائلين، فأقسموا على أن يجنوا ثمار جنتهم قبل انبلاج الصبح حتى لا يراهم أحد عند الجني، فلما جاؤوها وجدوها مسودة قد أصابها ما يشبه الاحتراق، فأدركوا أن ما أصابهم دون غيرهم كان نتيجة عزمهم على قطع ما كان ينتفع به الضعفاء من قومهم، فتابوا إلى الله رجاء أن يغفر لهم ويعطيهم خيراً منها،[78] ويبدو أن هذه القصة المنتزعة من واقع بيئتهم كانت معروفة لديهم، فاستخدمها سبحانه وتعالى للكشف عن عظيم قدرته وسلطانه قصد تهديد المشركين من البقاء على ما هم عليه من الكفر والجحود، ثمّ أتبع ذلك بتحذيرهم ممّا هو أكبر من ابتلاء الدنيا، فقال: ﴿ **كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ (القلم33)

ومن هنا يمكننا القول أن أسلوب القصص من الأساليب الفعالة في جلب المخاطبين واستمالتهم من خلال ما تزرعه في نفوسهم من ترغيب وترهيب.

---

(77) ـــ سيكولوجية القصة في القرآن الكريم | ، التهامي نقرة، ص/ 457

(78) ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،(مج12، ج29، ص80،79)

المطلب الثالث: أثر ذكر أحوال يوم القيامة في مقام الترغيب والترهيب

وذلك بأن يذكر سبحانه وتعالى أحوال يوم القيامة، وما أعده لعباده المؤمنين من نعيم والجحيم الذي خص به المشركين والعاصين، والقرآن الكريم مليء بمثل هذا النوع من الآيات لما يترتب على توظيف هذا الأسلوب من أثر في نفوس المخاطبين، بحيث ترغب النفس في الخير إذا علمت ما تحصل عليه أهله من جزاء، وترهب من الشر إذا عرفت ما لقاه أصحابه من شقاء، ويمكن القول أن الترغيب والترهيب بذكر يوم القيامة ينقسم إلى نوعين هما:

أولا) ــ الترغيب والترهيب بذكر أحوال يوم القيامة:

ويشمل هذا النوع ما ذكره سبحانه وتعالى من أهوال تحدث في هذا اليوم ، وكيفية تلقي الناس لها، والحالة النفسية التي يكونون عليها، وهي أمور تتعلق في أغلبها بمقام الترهيب وإن كانت لا تخلوا من بعض ملامح الترغيب، ومن بين ما ذكره سبحانه في وصف هذا اليوم قوله: ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ، وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ**﴾ (التكوير1إلى13) فقد صور الشارع الحكيم يوم الحساب بدقة متناهية وكأن السامع لها يرى هذه الأهوال أمامه، فبدأ بعالم المحسوسات وما سيحل به من خراب وتدمير قصد التزهيد في كل ما يشد إليه والحث على عدم المبالاة وعدم التعلق بشيء من أسبابه، ثمّ أتبع ذلك بذكر أحداث تجري يوم القيامة،[79] ليصل إلى نتيجة منطقية لهذا العرض، وهي سؤال كل نفس سمعت هذه الأهوال عن مصيرها، فقال: ﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ**﴾ وفي هذا الوصف من الترهيب للنفوس البشرية والتخويف ما لا يستطع أي عاقل مقاومته أو اجتنابه.

كما وصف سبحانه وتعالى في آيات أخرى أحوال الناس والهيئة التي يكونون عليها من هول اليوم الآخر ومن ذلك قوله: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾ (الحج2) فقد وظف الشارع الحكيم هذه الصورة بعد أمره للناس بالتقوى وتحذيرهم من زلزلة الساعة، فحالة

---

[79] ــ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم ابن عمر البقاعي، (ج8/ ص335)

الرعب التي أحدثتها هذه الزلزلة والتي أسقطت الحوامل، وأذهلت المرضعات، وأسكرت الناس بغير سكر، كفيلة بأن ترهب المخاطبين وتهز وجدانهم للمثول إلى أمره تعالى قبل وقوعها.

هذا وقد يبين في العديد من النصوص طرائق الحساب وحالة المجرمين في هذا الموقف من ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾ (الكهف49)

فكل هذه الأهوال وكل ما يترتب عليها من رعب وخوف يزرع في قلوب الناس في ذلك اليوم كفيل بأن يرهب الناس ويخيفهم في الحياة الدنيا، ومع هذا الرعب ورغم هذه الأحوال، ترك سبحانه وتعالى مساحة للترغيب والرجاء من خلال جملة من الآيات التي وعدت المؤمنين فيها بالاقتصاص لهم ورد حقوقهم والتأكيد على أن هذا اليوم يوم عدل وميزان، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ (الزمر69) وقوله أيضا: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (النساء:40)

ثانيا) ــ الترغيب والترهيب بذكر أهل الجنة وأهل النار:

ويتناول هذا القسم ما أعده سبحانه وتعالى من نعيم لعباده المخلصين والعقاب الذي سلطه على العصاة المجرمين بطريقة يتساوى فيها المقامين، وذلك لأنه تعالى وعد المؤمنين خير جزاء وبين بالتفصيل المآل الذي يؤولون إليه يوم القيامة وأحوالهم فيها، كما توعد المشركين والعصاة بالعقاب وبين المصير الذي يرجعون إليه والحال التي يكونون عليها نتيجة هذا العذاب.

إنّ المتمعن في النصوص القرآنية الواردة في هذا المقام يمكنه أن يلحظ أنّ المنهج الذي سلكه سبحانه وتعالى في عرضه لهذه الأحوال، قد اهتم ببيان ما يلقى الناس في ذلك اليوم من جزاء من جانبين، الجانب المادي، والجانب المعنوي أو النفسي، وهو ما سيذكر في العنصرين التاليين:

1) ــ الترغيب والترهيب بذكر الجزاء المادي:

استعرض الشارع الحكيم ما أعده لعباده من جزاء مادي يوم القيامة بغرض حث الناس على التفكر والتدبر واختيار الطريق الواجب اتباعه، موظفا في ذلك من وسائل الترغيب والترهيب ما يدفع النفس إلى الاستجابة لأوامره، ففي مجال الترغيب، ذكر سبحانه وتعالى أنّ ما أعده للمؤمنين من جزاء نتيجة إيمانهم وإخلاصهم من الأمور التي يعجز الحس عن إدراكها ومعرفة كنهها، حيث قال : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (السجدة17) أي أن ما أعده لهم من نعيم حسب ما بينه صلى الله عليه وسلم، ممّا لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلوب بشر،[80] وفي مقامات أخرى فصّل سبحانه هذا الإجمال بوصفه لما في الجنة من خير وجزاء، فذكر ما تحويه من أنهار ، ومساكن، وزوجات، وطعام وشراب، وحلي، ولباس، مؤكدا بأن عطاءه سبحانه عطاء واسع لا حدود له، ودائم لا ينتهي ولا يزول، قال تعالى: ﴿ **وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً ، عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ، وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ، عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً**﴾ (الإنسان12إلى21) وقال أيضا: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً**﴾ (النساء57)، وفي المقابل استخدم سبحانه وتعالى في مقام الترهيب ذكر المآل الذي يؤول إليه الكفار والمشركون مؤكدا بأن الخلود في جهنم هو مصيرهم

---

[80] ــ أخرج البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرءوا إن شئتم { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين }" أنظر صحيح البخاري، ك: بدء الخلق، باب: ما جاء في وصف الجنة وأنها مخلوقة،(مج2، ج4، ص424، رقم: 3244)، صحيح مسلم، ك: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (ج7، ص161، رقم:2824)

المحتوم، قال تعالى: ﴿ **أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ (ق24) وقال أيضا: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ**﴾ (البقرة161، 162) كما بين سبحانه أوصاف جهنم والعذاب الذي يلقونه فيها، فذكر في ذلك لباس أهل النار، وطعامهم، وشرابهم، والسلاسل والأغلال التي عليهم، وتأثير النار على أجسادهم، وغير ذلك من الأمور التي تزرع الرعب والخوف في قلوب المخاطبين، نحو قوله تعالى: ﴿ ... **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً**﴾ (الكهف29) وقوله: ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ، وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ (الحج19، 20، 21)

2) ــ الترغيب والترهيب بذكر الجزاء المعنوي:

إن المتطلع في الآيات القرآنية الواردة في هذا المقام يلحظ وبوضوح اهتمام الشارع الحكيم ببيان هذا النوع من الجزاء باعتباره نتيجة منطقية تترتب على ما يلقاه الفرقان، ومن بين ما يمكن أن يمثل به في مقام بيان الحالة النفسية التي يكون عليها أهل الجنة نتيجة ما أغدق عيهم سبحانه وتعالى من فضل،قوله تعالى: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ (الزمر22، 23) فقد بين تعالى في هذه الآية الطريقة التي يساق بها أهل الجنة، وكيفية دخولها، وحسن المعاملة التي يعاملون بها، والتحية التي يحيون بها نتيجة ما قدموه في حياتهم من أعمال،[81] فكان جوابهم على هذا الفضل أن حمدوا الله تعالى وأثنوا عليه لما رأوه من نعيم الجنة وفضلها، وهو جواب يحمل كل معاني الرضا والسعادة، [82] ومن بين ما يمكن أن يبين آثار نعمته تعالى على المؤمنين وحالة الرضا التي يكونون عليها أيضا، قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي**

---

[81] ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج4/ ص67)

[82] ــ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (ج24/ص25)

رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران107) فهذا الوصف الذي وصفهم به تعالى ما هو إلا مظهر من مظاهر الفرح والسرور بالنعيم الذي لقوه، والذي من آثاره ظهوره على وجوههم،[83] والأمثلة من هذا النوع كثيرة، هذا فيما يخص الأحوال النفسية لأهل الجنة، أما أحوال أهل النـــار فحالتهم النفسية أشد تأثرا بما وقع عليهم من عذاب، ويمكن أن يلمس ذلك من حالة الندم الـــتي يكونون عليها، ومن محاوراتهم وإلقائهم اللوم على بعضهم البعض، من بين الآيات التي تصـــف هذه الحال قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُـــوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** (إبراهيم22) يبين سبحانه وتعالى في هذه الآيات المجادلة التي حـــدثت بـــين ضعفاء أهل النار وسادتهم نتيجة ندمهم على ما كانوا عليه من كفر وضلالة، وما أفضت إليه هذه المجادلة من نطق أصل الضلالة ومصدرها وهو الشيطان، حيث تدخل لينفي عن نفســـه اللـــوم وليوقعه عليهم، والمقصود من توظيف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس المشركين والحث على ضرورة الحذر من إغوائه لما يحمله هذا الخطاب من إضمار الشر والسخرية من متبعيه.[84]

ومن بين النصوص التي وردت في مقام بيان هيئة الندم التي يكون عليهـــا أهـــل الشـــرك والضلالة قوله تعالى: ﴿ **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَـــلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّـــالِمِينَ مِـــنْ نَصِـــيرٍ﴾** (فاطر37)، وقوله أيضا: ﴿ **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَـــلْ إِلَـــى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾** (غافر11)

وبهذا يمكن القول أن جميع ما ذكره سبحانه وتعالى من نعيم أعده للمتقين سواء كان نعيما ماديا أو معنويا، وما سلطه على العاصين من جحيم سواء كان عذابا ماديا أو معنويا، وسائل استخدمها تعالى في مقام الترغيب والترهيب، حتى يظل العبد دائرا بين الخوف من غضب الله وعذابه وبـــين

---

[83] ـــ تيسير كلام الرحمن، عبد الرحمن السعدي، ص/ 126

[84] ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مج6، ج13، ص218)

الرجاء في مغفرته ورحمة، متخذا زيادة على ما سبق ذكره أساليب أخرى يمكـــن أن تلحـــظ في المبحث التالي:

المبحث الثالث) ــ أنواع مقام الترغيب والترهيب:

لما كان مقام الترغيب والترهيب من المقامات المذكورة كثيرا في القـــرآن الكـــريم إذ لا تكاد تخلو سورة أو آية منه، أخذ أنماطا مختلفة وأنواعا متعددة قد لا تخرج في مجملـــها عـــن ثلاث أقسام هي:

المطلب الأول: أنواع مقام الترغيب والترهيب باعتبار الموضوع

وذلك بأن يعالج القرآن الكريم موضوعا من المواضيع بتوظيف هذا المقام، ويأخذ هـــذا القسم مظهرين أساسيين هما:

أولا) ــ الترغيب في جنس الطاعات والترهيب من جنس المعاصي

من المعلوم أن الأصل في الشرائع الإلهية أنها جاءت لدعوة العبد لأن يكون طائعا لله مـــذعنا لأحكامه مستجيبا لندائه، لذا اهتمت النصوص القرآنية بهذا الأصل واستخدمت في ذلـــك مختلـــف الأساليب والوسائل، فالدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العمل له دعوة طبعت مختلف النصوص، لكونها تحقق المقصد الأساسي من خلق العباد،[85] قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُـــدُونِ** ﴾ (الذاريات56) وتحقيقا لهذا القصد، عمد الشارع الحكيم إلى توظيف مقام الترغيب قصـــد حـــث النفوس المخاطبة على الاستجابة لدعوته والخضوع له، كما استخدم مقام الترهيب للتخويف مـــن مغبة التكذيب برسالته والخروج عن أحكامه، مستعملا في ذلك من الأساليب الترغيبية والترهيبية ما يجعل العبد دائرا بين طرفي الرجاء والخوف،[86] ويمكن لمن تدبر هذه النصوص أن يلحظ أنه تعـــالى مزج في المقامين بين الوعد والوعيد بأمور دنيوية عاجلة وأخروية آجلة، ففي **مقام الترغيب**، رغـــب سبحانه وتعالى عباده بجملة من الوعود العاجلة منها الوعد بالحياة الطيبة والسلامة من المكاره، مـــن ذلك قوله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْـــزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (النحل96)، كما وعدهم بالتمكين لهم واستخلافهم في الأرض

---

(85) ــ الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، (مج1،ج1، ص41،42)

(86) ــ المصدر السابق، (مج2، ج،2 ص253، 254)

في قوله: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** ﴾ (النور55) فهذا وعد منه تعالى لعباده المؤمنين بأن يمكن لهم دين الإسلام ويظهره على الدين كله، وأن يجعلهم خلفاء في الأرض وورثةً لها، ويبدلهم من بعد الخوف الذي كانوا فيه أمنا،[87] فكل هذه الوعود كفيلة بأن تزرع الطمأنينة في قلوب المؤمنين وتحثهم على الصبر والثبات، وهو بهذا الوعد يذّكِرُهم بأن نصر الله لعباده ودعمه لهم سنة من السنن التي انتهجها مع عباده من الأمم السابقة، ومن بين ما رغب به تعالى المؤمنين أيضا الوعد بإمدادهم بأنواع الخيرات وزيادة النعم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً**﴾ (نوح10،11،12)

هذا فيما يخص الوعود الدنيوية، أما الوعود الأخروية والتي تعد الأصل في الترغيب، لأن المؤمن يسعى دوما لرضاء الله ونيل ثواب الآخرة،[88] فالنصوص القرآنية تزخر بمثل هذا النوع، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ (الحج14)، وقوله أيضا: ﴿ **سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (الحديد21)

وكما نهج الشارع الحكيم في مقام الترغيب أسلوب المزج بين الجزاءين، مزج كذلك بين النوعين في **مقام الترهيب**، حيث اتخذ من أسلوب الوعيد بما سيحل على العصاة في الحياة الدنيا ذريعة لزرع الخوف في قلوبهم وحثهم على الإقلاع على ما هم عليه0

ومن بين ما رهب به سبحانه وتعالى المشركين في هذا المقام، توعدهم بحرمانهم من خيرات الدنيا وحلول المصائب عليهم،[89] قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ**

---

[87] ـــ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور،(مج8،ج18، ص،282)

[88] ـــ الدعوة إلى الله على بصيرة، عبد النعيم محمد حسين، ص/225

[89] ـــ مع الله، محمد الغزالي، ص/202

أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى30) وفي مقام تهديدهم وحثهم على الإقلاع على ما هم عليه، أخبرهم سبحانه وتعالى أن ما يحدث في الأرض من مصائب، وقلة الثمار، وندرة الأمطار، وكثرة الفساد، إنما يحدث لهم جزاء بما كسبت أيديهم،[90] فقال: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** (الروم41) كما حذرهم في نصوص أخرى من تسليط العذاب العاجل عليهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾** (الأنعام65)

ولأن كانت الأمور المتوعد بحصولها في الحياة الدنيا أمور كبيرة كفيلة بزرع الخوف والرهبة في نفوس المخاطبين، إلا أن ما توعد به تعالى المشركين والعصاة يوم القيامة أعظم وأجل، والأدلة على هذا النوع كثيرة جدا، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** (النساء14)، وقوله أيضا: ﴿ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾** (النساء115)

ثانيا) ــ الترغيب في أنواع الطاعات، والترهيب من أنواع المعاصي

يكمن القول أن الطاعات المرغب فيها والمعاصي المرهب منها في القرآن الكريم كثيرة جدا ممّا يصعب الإلمام بها في هذا البحث، إلا أن الملاحظ في ذلك، أن الشارع الحكيم لم يعرض هذه المواضيع بنفس الصيغة الترغيبية أو الترهيبية، وإنما حشد لبعض الأعمال من هذه الأساليب ما يجعل الإنسان يدرك أهمية الموضوع من خلال هذا الحشد، بخلاف مواضيع أخرى لم تلق نفس الاهتمام، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أمرين أساسيين، أولهما: أهمية الموضوع وحرص الشارع على تحصيله, ويعود السبب الثاني إلى أن الموضوع المرغب فيه أو المرهب منه يتعارض وميولات المخاطبين به، فالناظر في النصوص القرآنية الواردة في مقام الترغيب في الجهاد في سبيل الله والترهيب من ترك هذه الفريضة، قد يدهش لما وظفه سبحانه وتعالى من وسائل لتحقيق هذا القصد، مراعيا في ذلك إزالة كل ما يمكنه أن يثني عزيمة المؤمنين أو أن يمنع استجابتهم لهذا الأمر، ففي مجال الترغيب، بين سبحانه وتعالى في العديد من النصوص ما يحصل عليه المجاهد من أجر

---

[90] ــ فتح القدير، الشوكاني، (ج4/ ص228)

وثواب في الآخرة من ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (التوبة111) يمثل سبحانه وتعالى في هذه الآية الثواب الذي يتحصل عليه المجاهدون نتيجة بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء، إلا أنه شراء من نوع مختلف، فالبائع عبد لله وجميع أموره في يده، والمشتري الله تعالى، والعوض كبير جدا، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم لله بالجنة التي أعدها لهم، كما أكد سبحانه ربح هذه الصفقة بمؤكدات كثيرة قاصدا من وراء ذلك زيادة ترغيب المجاهدين في قتال أعدائهم وحثهم على بذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله،[91] ولما كان بذل النفس من الأمور التي تصعب على العديد من الناس وتخيفهم، عمل الشارع الحكيم على إزالة هذا الخوف بالتأكيد على أن الموت بيده تعالى يلحق العبد أينما كان سواء جاهد أو لم يجاهد،[92] حيث قال: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** ﴾ (النساء78) بل وأكثر من ذلك فقد أكد سبحانه على أن من يقتل في سبيل الله لا يعد ميتا أصلا فقال في ذلك: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ (آل عمران169) ولأن المجاهدين مع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة كانوا قلة ضعافا، بخلاف ما كان عليه أعداؤهم، طمأنهم تعالى بأنه سيتكفل بتثبيط المشركين بإلقاء الرعب في قلوبهم وبأنه سيضمن لهم النصر فقال: ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ** ﴾ (آل عمران151) وقال أيضا: ﴿**وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الصف13) فكل هذه الأمور الترغيبية وغيرها ممّا ورد في هذا المقام كفيلة بأن تحفز المؤمنين على الجهاد في سبيل الله وتبدد مخاوفهم، وفي المقابل توعد سبحانه وتعالى من تخلف عن تلبية دعوته بتهديدات كثيرة من شأنها أن تبعث الرعب في قلب كل من لم تتمكن تلك المرغبات والحوافز من تنشيطه، من ذلك قوله: ﴿ **وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ**

---

[91] ـــ فتح القدير، الشوكاني، (ج2/ص407)، بتصرف

[92] ـــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (ج1/ ص498) بتصرف

وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال16) وقوله أيضا: ﴿ **إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَـذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (التوبة 39)

ومن هنا يمكن القول أن العناية الكبيرة التي أولاها الشارع الحكيم لهذه الفريضة، تؤكد على اهتمامه به وحرصه على تحصيله، كما تدل الطريقة التي استخدمها سبحانه وتعالى في هذا المقام على صعوبة هذا التكليف، يقول الرازي تأكيدا لهذا القول:" واعلم أنه تعالى عاد بعد الترغيب في طاعة الله وطاعة رسوله إلى ذكر الجهاد الذي تقدم ، لأنه أشق الطاعات ، ولأنه أعظم الأمور التي بها يحصل تقوية الدين"[93] كيف لا وقد قال تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ (البقرة193) فالاهتمام بالجهاد إذا هو الاهتمام بحماية كلية من كليات الشريعة، هو حماية لكلية الدين.

إن المتتبع للمنهج الذي سلكه الشارع الحكيم في الأمر بالجهاد وتثبيت قواعده، والمنهج الذي اتبعه في بيان أحكام الزواج وبيان ضوابطه، قد يلحظ الاختلاف الكبير بين المنهجين، رغم أن الأمر بالجهاد يشكل حماية لكلية الدين، والأمر بالزواج يحافظ على كلية النسل، وذلك لأن " النسل المعتبر هو الناشئ عن اتصال الزوجين بواسطة عقد النكاح"[94] ورغم ذلك فالنصوص الترغيبية في هذا الموضوع قليلة جدا مقارنة مع ما وظف في الموضوع السابق.

فقد رغب الشارع الحكيم في الزواج بجملة من المرغبات منها بيان أن النكاح من سنن الأنبياء والمرسلين حيث قال في مقام مدحهم والامتنان عليهم: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً** ﴾ (الرعد38) وقال في مقام مدح أوليائه بسؤاله ذلك في الدعاء"[95] : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً**﴾ (الفرقان74) إلا أن هذه المحفزات لم تقترن بأوامر تلزم به ولا بوعيد على تركه، ويمكن أن يرجع سبب ذلك إلى أن هذا الموضوع ممّا ترغب فيه النفوس ويتوافق مع فطرتها، قال الطاهر بن عاشور:" لما أراد مبدع الكون بقاء أنواع المخلوقات جعل من نظام كونها ناموس التولد، وجعل

---

[93] ـــ مفاتيح الغيب، أبو بكر الرازي،(مج5، ج10، ص156)

[94] ـــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/ 161

[95] ـــ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (ج1/ص377)

في ذلك الناموس داعية جبلية تدفع أفراد النوع إلى تحصيله بدافع من أنفسها غير محتاجة إلى حدود إليه أو إكراه عليه، ليكون تحصيل ذلك الناموس مضمونا وإن اختلفت الأزمان والأحوال، وتلك الداعية هي داعية ميل ذكور النوع إلى إناثه."[96] وبهذا يتضح أن قلة النصوص المرغبة في النكاح وانعدام النصوص المرهبة من تركه، إنّما يعود إلى أن هذا الموضوع ممّا يتوافق مع فطرة الناس ورغباتهم، فإذا ورد موضوع لا تتوفر فيه هذه الدواعي المحفزة أو المنفرة و لم يكثر فيه الشارع الحكيم أساليب الترغيب والترهيب، يمكن أن يلتمس من ذلك عدم أهمية الموضوع بالنسبة لمواضيع أخرى.

المطلب الثاني:. أنواع مقام الترغيب والترهيب باعتبار الجزاء

من الأساليب التي استخدمها سبحانه وتعالى لتحقيق مقام الترغيب والترهيب أسلوب الوعد والوعيد، حيث رتب على الأعمال المأمور بها أو المنهي عنها جملة من الجزاءات تحصل لكل من امتثل الأمر أو خالفه، قاصدا من وراء ذلك إكساب هذه الأحكام الصفة الإلزامية، ولأن طباع الناس تختلف من شخص لآخر ومن جماعة لأخرى، والمواضيع المرغب فيها أو المرهب منها كذلك، تنوعت هذه الجزاءات بما يتوافق مع هذا الاختلاف، حيث اقتصر سبحانه وتعالى في مقام الترغيب في بعض الأعمال على بيان ما أعده من ثواب عليها في الآخرة، في حين رغب في أوامر أخرى بإضافة جزاءات دنيوية على ذلك ، كما اقتصر في مقام الترهيب من بعض الأفعال على ذكر الجزاء الأخروي، ورهب من أعمال أخرى بالعقوبات الدنيوية، لذا يمكن القول أن هذا المقام أخذ مظهرين هما:

أولا) ــ الترغيب والترهيب بالجزاء الأخروي

أكثر الشارع الحكيم إعمال هذا القسم لحث المخاطبين وترغيبهم فيما أمرهم به وزجرهم وترهيبهم ممّا نهاهم عنه، وذلك لأن "الأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضى الله ورحمته، وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون الترهيب بالتخويف من غضب الله وعذابه في الآخرة"[97]

---

[96] ــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/ 155

[97] ــ الدعوة إلى الله على بصيرة، عبد النعيم محمد حسين، ص/ 225

ففي مقام الترغيب جاءت وعوده سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين وما أعد لهم من خـــيرات متنوعة ومختلفة نتيجة لإيمانهم وطاعتهم وإخلاصهم في الكثير من النصوص الحاثة على ذلك،كمـــا اقترنت هذه الوعود بمختلف الأفعال التي أمر بها سبحانه وتعالى وحث عليها وهي كثيرة جـــدا في القرآن الكريم، وكمثال على ذلك ما وعد به تعالى من عظيم أجر وثواب ترغيبا في الصدقة حيث قال: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُـــنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُـــونَ**﴾ (البقرة261، 262) وقال أيضا: ﴿ **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُـــمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (البقرة274)

وفي مقام الترهيب توعد سبحانه وتعالى المشركين والعصاة بسوء المصير الذي يؤولون إليه، وبالعقاب الذي أعده لهم نتيجة كفرهم وعصيانهم، والقرآن الكريم مليء بمثل هذا النـــوع مـــن النصوص،[98] كما بين سبحانه عند سوقه للأفعال المنهي عنها ما ينجر عن ارتكاب هذه الأفعال من عقاب، من ذلك ما توعد به المطففين في الكيل والميزان لأخذ حقوق الناس حيـــث قـــال: ﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّـــاسِ يَسْـــتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَـــالُوهُمْ أَوْ وَزَنُـــوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَـــالَمِينَ** ﴾ (المطففين، 1إلى6)

وقوله في مقام الترهيب من أكل أموال اليتيم والاعتداء عليها: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾ (النساء10)

هذا فيما يخص الأعمال التي اقتصر فيها الشارع الحكـــيم علـــى الترغيـــب والترهيـــب الأخروي، أما ما مزج فيه بين الجزاءين فسيتناوله العنصر التالي:

---

[98] ـــ أنظر تفصيل هذه المسألة في المبحث الثاني من هذا الفصل،(مسألة، الترغيب في جنس الطاعات والترهيب من جنس المعاصي) ص/ 140/ 141

ثانيا) ــ الترغيب والترهيب بالجزاء الدنيوي

من المقاصد التي قصد الشارع الحكيم تحصيلها نتيجة توظيفه للجزاء الأخروي سواء كان بالثواب أو العقاب أن يكون امتثال المخاطبين لأوامره بوازع داخلي، بحيث يقومون بالفعل عن طاعة وإذعان لله تعالى، ولما كانت طبيعة الناس مجبولة على حب النفع العاجل وإيثار جني ثمار ما عملته[99] وعلى الخوف من العقاب العاجل أيضا، وردت الكثير من النصوص الحاملة لهذا النوع من الترغيب والترهيب، سواء تعلق ذلك بجنس الطاعات والمعاصي،[100] أو بترتيبها على مصالح معينة قصد الشارع الحكيم جلبها، أو مفاسد قصد درءها، ولأن جانب الإخلال من العباد أكبر من جانب الطاعة والامتثال،[101] غلّب سبحانه وتعالى الترهيب بالجزاءات الدنيوية على الترغيب بها، حيث استعمل في مقام الترغيب جملة من المحفزات التي من شأنها أن تحث المكلف على تنفيذ المأمور به، سواء كانت هذه المحفزات غير مباشرة كأن يعد سبحانه وتعالى من يقوم بالعمل على مجازاته عليه بما يجنيه من فضل في المستقبل، أو أن تكون المرغبات مباشرة يتحصل عليها المؤمن بمجرد امتثاله، من ذلك ما وعد به سبحانه وتعالى المزكي من تنمية أمواله في العديد من النصوص منها قوله: ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيم** ﴾ (البقرة 276) حيث رغب سبحانه وتعالى من ينفق أمواله ابتغاء مرضاة الله بأن يزيد في هذه الأموال وينميها ويضاعف له ثوابها،[102] ومن الأمثلة التي تصلح لبيان ما رغب به سبحانه وتعالى عباده من جزاء مباشر نتيجة امتثالهم لأوامره قوله تعالى: ﴿ **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**﴾ (الحج28،29) فقد رغب

---

[99] ــ مع الله، محمد الغزالي، ص/ 247

[100] ــ أنظر تفصيل هذه المسألة في المبحث الثاني من هذا الفصل،(مسألة، الترغيب في جنس الطاعات والترهيب من جنس المعاصي) ص/ 140

[101] ــ الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي،(مج2،ج3/ ص252)

[102] ــ فتح القدير، الشوكاني، (ج1/ ص296)

سبحانه وتعالى المؤمنين في أداء فريضة الحج زيادة على ما أعده لهم من فضل يوم القيامة بما يجنوه من منافع دنيوية من شأنها أن تحفزهم وتقويهم على هذه العبادة. [103]

وفي مقام الترهيب أعمل سبحانه وتعالى أسلوب الوعيد وتسليط العقاب العاجل لردع المخاطبين وتخويفهم من الاعتداء على حدود الله وارتكاب ما نهاهم عنه، سواء كان هذا الوعيد غير مباشر بأن يتوعد سبحانه وتعالى من عصى أوامره بما سيحل عليه من عقاب دنيوي نتيجة غضب الله وسخطه عليه، أو أن يكون بتسليط العقوبة المباشرة عند ارتكاب الفعل، ويتمثل هذا النوع من الجزاء في القصاص والحدود، ويمكن أن يمثل للنوع الأول بما توعد به سبحانه وتعالى المرابين من جزاء حيث قال: ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا**﴾ (البقرة276) فقد توعد الله في هذه الآية المتعامل بالربا بأن يذهب بركة ماله وإن كثر حتى لا يبقى بيده شيئا،[104]

أما النوع الثاني فهو مجموع ما رتبه سبحانه وتعالى من عقوبات نتيجة ارتكاب جرائم من شأنها أن تهدد كيان الأمة وأن تخل بكليات الشريعة الإسلامية، فالشارع الحكيم قد استعمل للترهيب من هذه الجرائم ما أعده لمرتكبيها من عذاب وخزي في الآخرة، كما سلط على كل من لم تردعه هذه التوعدات، عقوبات من شأنها أن تقوِّم الجاني وتردع المقتدي.[105]

وبهذا يمكن القول أن في الجمع بين الجزاءين دليل على أهمية المواضيع التي استخدم فيها هذا النوع، مع أن الأصل في هذا المقام أن يكون الترغيب والترهيب أخرويا وأن يحكم المؤمنين الوازع الديني.

---

(103) ـــ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم ابن عمر البقاعي،(ج5/ ص195)

(104) ـــ فتح القدير، الشوكاني، (ج1/ ص296)

(105) ـــ مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص/ 205، 206، بتصرف

المطلب الثالث: أنواع مقام الترغيب والترهيب باعتبار علاقته بالأحكام

سبقت الإشارة إلى أن الشارع الحكيم قد وظف مقام الترغيب والترهيب قصد وضع المكلف بين طرفي الرجاء والخوف، ممّا يترتب عليه ضمان استجابته لأوامره تعالى، فالاقتران الوارد بين الأمر وما واستخدمه تعالى من أمور مرغبة فيه أو مسائل مرهبة من تركه قد يكون قرينة فعالة تمكن الناظر في النص الشرعي من معرفة نوع هذا الأمر، يقول ابن القيم عند حديثه عن عادة القرآن في سوق الأوامر والنواهي:" ويستفاد من كون الأمر المطلق للوجوب، من ذمه لمن خالفه وتسميته إياه عاصيا وترتيبه عليه العقاب العاجل أو الآجل، ويستفاد كون النهي للتحريم من ذمه لمن ارتكبه، وتسميته عاصيا وترتيب العقاب على فعله..." [106] فالترهيب بالذم المترتب على ترك المأمور به أو القيام بالمنهي عنه وبترتيب العقاب على ذلك، قرينة استدل بها ابن القيم على بيان نوع الأمر أو النهي، ويؤكد الشاطبي على أنّ الأوامر والنواهي المطلقة والغير محددة لا تأتي على وزان واحد في كل فرد من أفرادها،[107] فقد تكون من باب الواجبات، أو المندوبان، أو من باب المحرمات أو المكروهات، وأن السبيل لبيان ما قصده الشارع الحكيم منها يرجع إلى أمرين أساسيين،أحدهما دلالة المقام وقرائن الأحوال على ذلك، فالأوامر إن جاءت على العموم والإطلاق في كل شيء وعلى كل حال لا تأخذ حكما واحدا وإنما يستفاد حكمها من المقام، ويرجع السبيل الثاني إلى اقتران هذه الأوامر والنواهي بمقام الترغيب والترهيب، فيستدل بذلك على أن الأوامر المرغب فيها والمرهب من تركها للوجوب، وأن النواهي المرهب من فعلها للتحريم.[108] هذا ويمكن أن يستفاد ممّا ذكره الصنعاني عند حديثه عن صلاة الفجر وعن قوله

---

(106) ـــ بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية، (ج4/ ص7)

(107) ـــ يمثل الشاطبي لهذه المسألة بأمثلة منها، أن الأمر بالإحسان ليس مأمورا به أمرا جازما في كل شيء بل ينقسم بحسب الأحوال فالإحسان في العبادات بنمام أركانها من باب الواجب، وفي آدابها من باب المندوب. أنظر: الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي(مج2،ج3،ص97، 98)

(108) ـــ الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، (مج2، ج3، ص98، 99)، بتصرف

صلى الله عليه وسلم:" ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها"[109] أن الأوامر إن لم تقترن بما يرهب من تركها لا تعد من الواجبات، حيث قال:" ..... وفيه دليل على الترغيب في فعلهما وأنهما ليستا بواجبتين إذ لم يذكر العقاب في تركهما بل الثواب في فعلهما "[110]

وإضافة لما سبق من بيان لأهمية هذا المقام في الدلالة على الأوامر والنواهي ، فقد اعتبر مقام الترغيب والترهيب من الأمور المبينة لهذه الأحكام وإن لم تصدر عن الشارع الحكيم بصورة صريحة، فقد يكفي التنويه بالفعل والترغيب فيه للدلالة على أنه مأمور به، وكذا الحال بالنسبة للنهي، يقول العز بن عبد السلام:" من ندم في الآخرة على كونه فعل دل ندمه على النهي عن الفعل، ومن ندم على كونه ترك دل على النهي عن الترك ومن تحسر على كونه فعل أو تحسر على كونه ترك فكذلك ....."[111] فالناظر إلى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ (التكوير8،9) يدرك تماما أنّ ما حوته هذه الآية من وعيد وتهديد على ارتكاب هذا الفعل، لا يمكن أن يستفاد منه إلا النهي والتحريم.

وفي نهاية هذا الفصل يمكن القول، أن مقام الترغيب والترهيب من المقامات المهمة في القرآن الكريم، وتلتمس هذه الأهمية من جملة من الأمور منها:

ـــ أن الشارع الحكيم قد نص في العديد من الآيات على أن هذا المقام مقصد من مقاصد التنزيل، وبين في آيات أخرى أن الحكمة من إرسال الرسل الدعوة بهذا الأسلوب.

ـــ تنوع الطرق التي وظفها سبحانه وتعالى في استخدام هذا المقام ومراعاته لأحوال المخاطبين عند كل طريقة.

ـــ كثرة الوسائل والأساليب المستعملة لتحقيق هذا القصد.

ـــ تنوعه وتعلقه بمختلف المواضيع والمقامات الواردة في الكتاب العزيز.

---

(109) ـــ أخرجه مسلم: ك، صلاة المسافر وقصرها، باب، استحباب ركعتي الفجر والحث عليها...، (مج3، ج6، ص7، رقم:725)

(110) ـــ سبل السلام, محمد ابن إسماعيل الصنعاني، (ج2/ ص382)

(111) ـــ الإمام، عبد العزيز ابن عبد السلام، (ج1/ ص271)

الخاتمة:

وفي نهاية هذا البحث يمكن تقرير بعض النتائج المتوصل إليها على النحو التالي:

ـــ إن محاولة فهم النصوص الشرعية والبحث عن مقاصد الشارع الحكيم منها، يتطلب إضافة إلى النظر في النص المراد بيانه، البحث عن الظروف والملابسات المحيطة به، سواء تعلق الامر ببيان ما احاط بالنص من ملابسات ساعة نزوله، وهو ما يتمثل في اسباب النزول، او تمثلت تلك الظروف في جميع العوامل والاحوال التي كان يعيشها المخاطبون زمن التشريع، ففي استحضار هذه العناصر، إعادة بناء للمقام الذي سيق فيه الخطاب.

فالمقام إذا هو جملة العناصر المكونة للخطاب والعناصر المحيطة به والتي يحصل من مجموعها بيان مراد الشارع.

ـــ ان اهمية مقام الخطاب تكمن في كونه وسيلة فعالة تساهم في تفسير النصوص وفهم مقاصدها، فقد عده العلماء من وسائل تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتعليل الاحكام...، كما يساهم ايضا في الجمع بين الادلة وإزالة ما قد يعتري بعض النصوص من تعارض.

ـــ ان مقامات الخطاب في القران الكريم على اختلافها وتنوعها يمكن ان تندرج ضمن ثلاثة انواع: مقام البيان والتبليغ، ومقام الإمامة، ومقام القضاء، ويترتب على هذا التقسيم ان بعض الاحكام التي حوتها ايات الذكر الحكيم يتعلق تنفيذها بمهام الإمام او القاضي دون غيرهما. وهنا يمكن ان يطرح تساؤل عن حكم من تجاوز هذا الاختصاص وقام بتنفيذ حكم من الاحكام التي

يتعلق تنفيذها بمقام الإمامة او القضاء، كان يقتص ولى المقتول من القاتل بنفسه ، او ان ينفذ حدا من حدود الله، وغير ذلك من الاحكام المامور بها في الكتاب العزيز والتي اجمع العلماء على اختصاصها بمهام الإمام او القاضي.

ـ انه في حالة اختلاف العلماء في تحديد مقام الخطاب في بعض الايات، ـ المسالة تحتاج إلى بحث اكثر ـ يرجح مقام البيان والتبليغ على غيره، لان الغالب من احوال النصوص الشرعية التبليغ والبيان.

كما يمكن القول ايضا فيما يتعلق بمقام الترغيب والترهيب.

- ان الشارع الحكيم قد اولى هذا المقام اهمية كبيرة يمكن ان تلتمس من عدة امور منها:

- النص في جملة من الايات على ان هذا المقام مقصد من مقاصد التنزيل، وبين في ايات اخرى ان الحكمة من إرسال الرسل الدعوة بهذا الاسلوب.

ـ تنوع الطرق التي وظفها سبحانه وتعالى في استخدام هذا المقام ومراعاته لاحوال المخاطبين عند كل طريقة.

ـ كثرة الوسائل والاساليب المستعملة لتحقيق هذا القصد.

ـ كما يمكن ان تلتمس هذه الاهمية ايضا، من كثرة ورود هذا المقام في الكتاب العزيز وتعلقه بمختلف المواضيع والمقامات تضمنها.

هذا ويمكن ان يضاف إلى هذه النتائج بعض المسائل التي تحتاج إلى البحث، والتي اقدمها على شكل مقترحات يمكن دراستها مستقبلا منها:

مقترحات للبحث:

ـــ تعيين الحدود التي يمكن ان تطبق فيها نظرية المقام من خلال بيان النصوص القرانية التي تحتاج إلى فهم الظروف التي انزل فيها الخطاب، اي بيان الثوابت والمتغيرات في القران الكريم.

ـــ اثر الواقع في تغير فهم النصوص القرانية، ويمكن ان يدرس هذا الموضوع بطريقة المقارنة بين تفاسير بعض السلف، والتفاسير الحديثة.

ـــ اثر مقامات الخطاب في فهم النصوص النبوية، ففي استحضار الظروف التي القي فيهـــا الحديث النبوي، بيان للمقصد من هذا الحديث.

ـــ من الكتب التي تشكل دراسة مهمة في هذا المقام، تفسير التحرير والتنوير للطاهر بـن عاشور، والذي تناول فيه مقامات الخطاب من جانبين، من ناحية تاثيره في تفسير النصوص وبيان الاحكام الشرعية، و من كونه مظهرا من مظاهر الإعجاز البلاغي قي القران الكريم.

تم بحمد الله وعونه في: 14ذي الحجة 1427 بيع وعشرين واربعمائة والف بعد الهجرة على صاحبها افضل صلاة وازكى تسليم، وعلى اله وصحبه اجمعين.

فهرس الآيات القرآنية:

1) ــ { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ} (البقرة19،20) ص125
2) ــ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ } (البقرة21) ص74
3) ــ { فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ} (البقرة23) ص 45
4) ــ { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ } (البقرة158) ص53
5) ــ { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ } (البقرة173) ص58
6) ــ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ } (البقرة 178) ص88
7) ــ { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ } (البقرة194) ص93
8) ــ { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّه} (البقرة196) ص58
9) ــ { يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ } (البقرة219) ص49
10) ــ { وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ } (البقرة228) ص50
11) ــ { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ. } (البقرة 229) ص98
12) ــ { فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً } (البقرة239) ص60
13) ــ{ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ } (البقرة 261) ص147
14) ــ { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ. } (البقرة266) ص128
15) ــ { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا } (البقرة275، 276) ص148
16) ــ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ. } (البقرة 278) ص121
17) ــ{وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ } (البقرة281) ص121
18) ــ { مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} (البقرة 282). ص96
19) ــ { وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ } (آل عمران107) ص139
20) ــ { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ}(آل عمران137) ص129
21) ــ { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} (آل عمران146) ص113
22) ــ { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا} (آل عمران151) **ص144**

23) ــ { وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ.} (آل عمران 159) **ص78**
24) ــ { وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا } (آل عمران169) ص144
25) ــ{ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا.} (آل عمران188) ص54
26) ــ { فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً } (النساء 6) ص106
27) ــ {وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ } (النساء 15) ص93
28) ــ { وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا } (النساء 35) ص97، 101، 104
29) ــ { إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } (النساء:40) **ص137**
30) ــ {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ } (النساء 58) ص78
31) ــ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ } (النساء 59) ص79
32) ــ { فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ } (النساء 65) ص96
33) ــ { وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاة.} (النساء 102) ص60، 90
34) ــ { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ } (النساء 105) ص65، 98
35) ــ{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } (النساء167إلى169) **ص115**
36) ــ { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ....} (المائدة 32) **ص83**
37) ــ {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .....} (المائدة 33) **ص83**
38) ــ {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ .....} (المائدة 4 **ص99**
39) ــ{ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ..... } (المائدة 44) ص77، 95
40) ــ{ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ..... } (المائدة 45) ص83
41) ــ { وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ..... } (المائدة 49) **ص65، 95، 100**
42) ــ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ.....} (المائدة 106) **ص102**
43) ــ{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ .....} (الأنعام48) **ص110**
44) ــ { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ.....} (الأنعام 65) **ص143**
45) ــ { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ..... } (الأنعام 74) **ص 43**
46) ــ { وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ.....} (الأنعام 75) ص**43**
47) ــ { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً .....} (الأنعام 76) ص42

48) ــ { يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ.....} (الأنعام78) ص 73

49) ــ { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ .....} (الأنعام 82) ص44

50) ــ { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ.....} (الأنعام101) ص 14

51) ــ{ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ .....} (الأنعام102) ص 14

52) ــ { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.....} (الأنعام 103) ص14

53) ــ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.....} (الأنعام134) ص41

54) ــ { قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ.... } (الأنعام135) ص41 ،45

55) ــ {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ.....} (الأنعام141) ص33

56) ــ { قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ }(الأنعام145) ص 57

57) ــ {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ .... }(الأنعام147) ص 112

58) ــ { إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }(الأنعام165) ص 112

59) ــ{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ .....} (الأعراف31) ص51

60) ــ{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...} (الأعراف33) ص72

61) ــ{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً.... } (الأعراف158)ص74

62) ــ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا .....} (الأنفال15)ص85

63) ــ {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ .....} (الأنفال16)ص85، 144

64) ــ { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ..... .} الأنفال 41) ص81

65) ــ {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ..... } (الأنفال 58) ص85

66) ــ {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ .....} (الأنفال 60) ص85

67) ــ { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا .....} (الأنفال 61) ص84

68) ــ { إِلاّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ..... }(التوبة 39) ص145

69) ــ { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ..... } (التوبة60) ص80، 89

70) ــ {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ.....} (التوبة 71) ص80

71) ــ { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ.....} (التوبة111) ص143

72) ــ { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ.} (التوبة 103) ص86، 90

73) ــ{ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ } (هود13) ص27
74) ــ { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي } (هود28) ص 35
75) ــ {وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ.} (هود37) ص 30
76) ــ { إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ. } (هود87) ص48
77) ــ { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ . } (يوسف27،26) ص97
78) ــ {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ . }(النحل44) ص64
79) ــ{ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ. } (النحل64) ص65
80) ــ{ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ. } (النحل96) ص141
81) ــ { وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً} (الإسراء33) ص 94
82) ــ { وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ. } (الإسراء64) ص18
83) ــ { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ }(الإسراء88) ص67
84) ــ{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ....} (الكهف2،1) ص110
85) ــ {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقّ} (الكهف13إلى 15) ص132
86) ــ { لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا .....} (الكهف21) ص133
87) ــ{ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ} (الكهف29) ص17
88) ــ {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ } (الكهف49) ص137
89) ــ { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ } (الكهف56) ص110
90) ــ { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ.} (الحج2) ص136
91) ــ { إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا} (الحج14) ص138
92) ــ { هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ.....} (الحج19، 21،20) ص139
93) ــ { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً.....} (الحج29،28) ص149
94) ــ{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا..... } (الحج77) ص71
95) ــ{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ.....} (النور2) ص92
96) ــ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ .....} (النور28،27) ص72
97) ــ {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.....} (النور55) ص115

98) ــ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ }(الأحزاب1) ص75
99) ــ {يا أهل يثرب لا مَقامَ لكم.....}(الأحزاب13) ص26
100) ــ { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ....}(الأحزاب68) ص 129
101) ــ { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ .....}الصافات147) ص35
102) ــ{ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ..... .} (غافر 3) ص112
103) ــ { قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ.....} (غافر11) ص140
104) ــ { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ.....} (غافر58إلى61) ص13
105) ــ { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ..... } (غافر62) ص13
106) ــ { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ.....} (فصلت 6،7) ص80
107) ــ { اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.....} (فصلت40) ص17
108) ــ { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ..... } (الدخان10) ص54
109) ــ{ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، .}(الدخان25،26) ص26
110) ــ { ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ .....} (الدخان49) ص40
111) ــ { مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى..... } (الحشر7) ص81
112) ــ { لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ .....} (الممتحنة8، 9) ص84
113) ــ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ ....} (الممتحنة10) ص87
114) ــ { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ.. } (الطلاق 1) ص116
115) ــ { وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ. } (الطلاق2) ص96
116) ــ { أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ }(الغاشية17إلى20) ص49

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

" احتجبت من أفلح بن أبي قيس.."..... ص48

" إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة "..... ص20

"إذا حكم الحاكم فاجتهد.. "..... ص99

أن جبريل احتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم. "..... ص123

"تربت يداك فبما يشبهها. "..... ص48

" التمر بالتمر والحنطة بالحنطة.."..... ص18

" تنكح المرأة لأربع "..... ص47

" ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها"..... ص152

" عقرى حلقي أو ما كنت طفت "..... ص 22

"على اليد ما أخذت حتى ترد"..... ص18

" ليس كما تظنون ولكنه الشرك"..... ص44

" هذا شيء كتبه الله على بنات آدم"..... ص21

"وجعلت الأرض كلها لنا مسجدا"..... ص23

فهـــرس الآثار

"إنّ ناسا يقولون: إذا قعدت على حاجتك"..... ص20

"لئن كان كل امرئ فرح".....ص54

"والله لو منعوني عقالا ".....ص87

"وإن كان خوفا هو أشد من".....ص60

"طلقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم".....ص51

"عن سعيد بن العاص أنه كان يحارب".....ص91

"قلت لعائشة أم المؤمنين ".....ص53

"يأتي الناس يوم القيامة بدخان".....ص54

قائمة المصادر والمراجع

1) ـ القرآن الكريم: برواية ورش، إنتاج موقع روح الإسلام

كتب التفسير وعلوم القرآن:

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (بيروت، دار الكتب العلمية، بلا طبعة ولا تاريخ)

أحكام القرآن، ابن العربي، راجع أصوله وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1416/ 1996)

أحكام القرآن، أبو بكر بن علي الرازي الجصاص، (بيروت، دار الكتب العلمية، دط، دت)

أحكام القرآن، محمد ابن إدريس الشافعي، جمعه: أبو بكر ابن الحسن البيهقي، كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق(بيروت، دار الكتب العلمية، دط، 1400/ 1980)

أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص" دراسة مقارنة بين أصول التفسير وأصول الفقه" عماد الدين محمد الرشد،(دار الشهاب، الطبعة الأولى،1420/ 1999)

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي،(القاهرة، مكتبة ابن تيمية، 1414/ 1992)

أيسر التفاسير، لكلام العلي الكبير، وبهامشه:" نهر الخير على أيسر التفاسير" أبو بكر جابر الجزائري،(الناشر:المدينة المنورة،مكتبة العلوم والحكم، توزيع: بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1416/ 1995)

البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، طبعة جديدة بعناية: زهير جعيد، (دار الفكر للطباعة والنشر، 1425، 1426/ 2005)

البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، خرج حديثه وعلق عليه: مصطفى عبدالقادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة، الأولى، 1408/ 1988)

تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر(بيروت ، المكتبة العلمية..)

تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر(بيروت، المكتبة العلمية..)

التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، دون طبعة، دون تاريخ)
التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد ابن جزي، (الدار العربية للكتاب، بلا طبعة ولا تاريخ)
تفسير البغوي، المسمى معالم التنزيل ، أبو محمد الحسين ابن مسعود الفراء البغوي، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1414/ 1993)
تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن عمر ابن كثير الدمشقي، (بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الخامسة، 1996/1416)
تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا طبعة، ولاتاريخ)
تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي،تحقيق: عبد الرحمن بن معلى اللويحق، (بيروت، دار بن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1424/ 2003)
جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري، (بيروت، دار المعرفة، 1414/ 1992)
جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري، (بيروت، دار المعرفة، 1414/ 1992)
الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، (بيروت، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، 1403/ 1983)
دراسات في القرآن الكريم، محمد إبراهيم الحفناوي، (القاهرة، دار الحديث، بلا طبعة ولا تاريخ)
روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن، محمد علي الصابوني، (بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر،بلا طبعة ولا تاريخ)
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، شهاب الدين محمود الألوسي، ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1422/ 2001)
في ظلال القرآن، سيد قطب، (القاهرة، دار الشروق للطباعة والنشر، الطبعة الخامسة والثلاثين،2005/1425)
القرآن ونصوصه، عدنان زرزور،(دمشق، مطبعة خالد بن الوليد، الطبعة الثانية، سنة، 1400، 1980)
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري،(بيروت، دار المعرفة، دون طبعة، دون تاريخ)

لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي،(بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1419/ 1998)
مباحث في علوم القرآن، مناع القطان،(الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، سنة، 1421/ 2000)
محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، تحقيق: فؤاد عبد الباقي،(القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1376، 1957)
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد الله الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم،(القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية)
مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، تحقيق: عماد زكي البارودي، (القاهرة، المكتبة التوفيقية)
مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، (بيروت، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر، الطبعة الرابعة، 1419/ 1998)
ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير، تحقيق: سعيد الفلاح، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1403/ 1983)
مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية، 1422/ 2001)
مواهب الجليل من تفسير البيضاوي" أنوار التنزيل وأسرار التأويل، محمد أحمد كنعان(بيروت، دار العلم للملايين، دار لبنان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى،1404/1984)
النبأ العظيم" نظرات جديدة في القرآن الكريم" عبد الله دراز، (الكويت، دار القلم، الطبعة الثانية، 1390/ 1970)
نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدينبن عمر البقاعي، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق غالب المهدي،(بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 1424/ 2003)
الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سليمان بن محمد العلوان، تقديم عائشة عبد الرحمن" بنت الشاطئ، (القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1419/1998)

كتب الحديث النبوي وعلومه:

2) ـ المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411/ 1990)
3) ـ صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري،(بيروت، دار الكتب العلمية، بلا طبعة، ولا تاريخ)
4) ـ سبل السلام شرح بلوغ المرام، محمد ابن إسماعيل الصنعاني، تعليق: محمد عبد العزيز الخولي، (بيروت، دار الجيل، بلا طبعة، ولا تاريخ)
5) ـ سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، حقق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه: محمد فؤاد عبد الباقي،(بيروت، دار الكتب العلمية، بلا طبعة، ولا تاريخ)
6) ـ سنن الدّارقطني، علي بن عمر الدّارقطني، علق عليه وخرج أحاديثه: مجدي بن منصوربن سيد الشورى، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1417/ 1997)
7) ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني،(الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، بلا طبعة، 1415/ 1995)
8) ـ صحيح مسلم بشرح النووي، مسلم ابن الحجاج النيسابوري، تحقيق: رضوان جامع رضوان،(القاهرة، المكتب الثقافي الأزهر، الطبعة الأولى،1422/ 2001)
9) ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تصحيح وتحقيق: مجد الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة، دار الريان للتراث، الطبعة الثانية، 1407/ 1987)
10) ـ سنن أبي داود، أبو داود بن الأشعث السجستاني، راجعه وضبط أحاديثه وعلق عليه: محمد محي الدين عبد الحميد، ،(بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا طبعة، ولا تاريخ)
11) ـ سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، (بيروت، دار الكتب العلمية، بلا طبعة ولا تاريخ)
12) ـ الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، مع مختصر شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، أحمد عبد الرحمن البنا، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا طبعة ولا تاريخ)
13) ـ ضعيف سنن أبي داود، ضعف أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على استخراجه وطباعته والتعليق عليه، زهير الشاوس، (بيروت

المكتب الإسلامي، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج، "الرياض"، الطبعة الأولى، 1412/ 1991)
14)- ضعيف سنن الترمذي، ضعف أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، أشرف على استخراجه وطباعته والتعليق عليه، زهير الشاوس، (بيروت المكتب الإسلامي، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج، "الرياض"، الطبعة الأولى، 1412/ 1991)
15)- الموطأ، مالك بن أنس الأصبحي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، (د. ذكر دار النشر، الطبعة الأولى، 1424/ 2003)
16)- اختلاف الحديث، محمد بن إدريس الشافعي، برواية، الربيع بن سليمان المرادي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، (بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، 1405/ 1985)
17)- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، مع تعليقات الحافظ شمس الدين بن القيم الجوزية، خرج أحاديثه عصام الصبايطي،(القاهرة، دار الحديث، بلا طبعة، 1422/ 2001)
18)- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، 1424/ 2003)
19) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش،0بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1405/ 1985)
20)

كتب الفقه وأصوله والمقاصد

21)- أصول الفقه، محمد الخضري، (تونس، دار المعارف للطباعة والنشر، بلا طبعة، 1409/ 1989)
22)فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا طبعة، ولا تاريخ)
23)- أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم الجوزية، رتبه وضبطه وخرج أياته، محمد عبد السلام إبراهيم،(بيروت، دار الكتب العمية، بلا طبعة، 1417/ 1996)
24)المسودة في أصول الفقه، تتابع على تأليفه ثلاث أئمة من آل تيمية: مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله، شهاب الدين أبو المحاسن عبد الحليم بن عبد السلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، جمعها،

شهاب الدين أبو العباس الحراني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (بيروت، دار الكتاب العربي،بلا طبعة ولا تاريخ)
25) ـ المنخول من تعليقات الأصول، أبو حامد الغزالي، حققه وخرج نصه وعلق عليه، محمد حسن هيتو، (دمشق، دار الفكر، الطبعة الثالثة، سنة، 1419/ 1998)
26)- منهج الاستدلال بالسنة في المذهب المالكي، مولاي حسين ابن الحسن الحيان، (الإمارات العربية المتحدة، دار البحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى،سنة 1424/ 2003)
27)- طرق الكشف عن مقاصد الشارع، نعمان جعيم، (الأردن، دار الفاتح للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة، 1422/ 2002)
28)ـ نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، إسماعيل الحسيني، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة، 1416/ 1995)
29)- الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمّادي، (بيروت، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1994/1415)
30)المنهج الأصولي في فقه الخطاب الشرعي، إدريس حمادي، (الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1419/ 1998)
31)الرسالة، محمد ابن إدريس الشافعي، تحقيق: خالد السبع العلمي، زهير شفيق الكبّي، (بيروت، دار الكتاب العربي،بلا طبعة، 1425/ 2004)
32)- المستصفى في علم الأصول، أبو حامد الغزالي، طبعه وصححه: محمد عبد السلام عبد الشافي،(بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1413/ 1993)
33)الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1411/ 1991)
34)أصول السرخسي، أبو بكر محمد ابن أحمد السرخسي، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني،(بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1414/ 1993)
35)- أنوار البروق في أنواء الفروق، شهاب الدين القرافي، (بيروت، دار الكتب العلمية، بلا طبعة، دون تاريخ)
36)- البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد ابن هاد الزركشي، قغام بتحريره: عبد القادر بن عبد الله العاني، مراجعة: سليمان الأشقر(الكويت، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، دار الصفوة للطباعة والنشر، الغردقة، الطبعة الثانية، 1413، 1992)

37) المحصول في علم أصول الفقه، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، (بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الثانية، 1420/ 1999)
38) ـ المحصول في علم أصول الفقه، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، تحقيق طه جابر فياض العلواني، (الرياض، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، 1400/ 1980)
39) التقرير والتحبير شرح ابن أمير الحاج الحلبي على التحرير في أصول الفقه، كمال الدين ابن الهمام : عبد الله محمود محمد عمر، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1419، 1999)
40) ـ حاشية البجيرمي، سليمان بن عمر بن محمد البجيرمي، (تركيا، المكتبة الإسلامية، بلا طبعة ولا تاريخ)
41) ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام، (بيروت، دار الكتب العلمية، بلا طبعة ولا تاريخ)
42) ـ المبسوط، شمس الدين السرخسي، (بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، بلا تاريخ)
43) ـ المغني، ويليه الشرح الكبير، موفق الدين ابن قدامى المقدسي، وشمس الدين ابن قدامى المقدسي، تحقيق: محمد شرف الدين خطاب،والسيد محمد السيد،(القاهرة، دار الحديث، بلا طبعة، 1425/ 2004)
44) ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبو بكر الكساني،(بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1418/ 1996)
45) ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد، أبو الوليد محمد بن رشد، طبعة مصححة ومنقحة أشرف عليها: ضياء الدين يونس، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1416/ 1996)
46) ـ الإمام في بيان أدلة الأحكام، عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام، دراسة وتحقيق: رضوان مختار ابن غريب، (بيروت، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، 1987/1407)
47) ـ مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، (تونس، المؤسسة التونسية للطباعة، بلا طبعة، ولا تاريخ)
48) ـ الفصول في الأصول، أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: عجيل جاسم النشمي،(الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 1405/ 1985)

49)- الإبهاج في شرح المنهاج، على منهاج الوصول إلى علم الأصول، علي عبد الكافي السبكي وولده تاج الدين السبكي، (بيروت، دار الكتب العلمية، بلا طبعة ولا تاريخ)
50)- المعتمد في أصول الفقه، محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي، تحقيق: خليل الميس، (بيروت، دار الكتب العلمية،بلا طبعة، ولا تاريخ)
51)- البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله أبو المعالي الجويني، تحقيق:عبد العظيم محمود الديب،(مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الرابعة، 1418/ 1998)
52)- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد الآمدي، تحقيق السيد جميلي، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1404/ 1984)
53)- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، وهو الكتاب المسمى أنوار كوكب أنهج المسالك بشرح موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، تحقيق، أصولها، ووثق نصوصها، طه عبد الرؤوف سعد،(القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، 1424/2003)

كتب السياسة الشرعية والقضاء

54)- تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام، برهان الدين ابن فرحون اليعمري، شرح أحاديثه وعلق عليه، جمال مرعشلي، (بيروت، دار الكتب العلمية، بلا طبعة، 1422/ 2001)
55)- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم الجوزية، مراجعة وتصحيح: أحمد عبد الحليم العسكري، (القاهرة، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بلا طبعة، 1380/ 1961)
56)- صنوان القضاء وعنوان الإفتاء، عماد الدين محمد الخطيب الأثفورقاني،
تحقيق: مجاهد الإسلام القاسمي، (الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،بلا طبعة، 1422/ 2001)
57)- معين الحكام على القضايا والأحكام، أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد الرفيع، تحقيق: محمد بن القاسم ابن عياد، (بيروت، الغرب الإسلامي،بلا طبعة، 1409/ 1989)
58)- القضاء ونظامه في الكتاب والسنة، عبد الرحمن الحميضي، (مكة المكرمة، مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة 1409/ 1986)
59)- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، علي بن محمد الماوردي، (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، بلا طبعة، 1403/1983)

60)ـ السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تقي الدين ابن تيمية،(البليدة، قصر الكتب،بلا طبعة، ولا تاريخ)

كتب الأدب واللغة العربية

61)ـ اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، (القاهرة، عالم الكت، الطبعة الثالثة، 1418، 1998)

62)ـ ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، تحقيق سالم غانم، به زيادات وقوبل على أصول تنشر لأول مرة، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1424/ 2003)

63)ـ لسان العرب، جمال الدين بن منظور، (بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، 1412/ 1992)

64)ـ الأصمعيات، اختيار الأصمعي، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون،(مصر، دار المعارف،بلا طبعة، ولا تاريخ)

65)ـ مقدمة في صناعة النظم والنثر، شمس الدين محمد بن حسن النواجي، حققه وقدم له: محمد بن عبد الكريم، (بيروت، منشورات مكتبة الحياة، بلا طبعة، ولا تاريخ)

66)ـ أبجد العلوم، صديق بن حسن القنوجي، (بيروت، دار بن حزم، الطبعة الأولى، 1423/ 2002)

67)ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام، (القاهرة، دار الحديث،بلا طبعة، ولا تاريخ)

68)ـ مختار الصحاح، محمد ابن أبي بكر الرازي،(بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، بلا طبعة، 1415/ 1995)

69)ـ الكتاب كتاب سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر" سيبويه" تحقيق: عبد السلام محمد هارون(القاهرة، مكتبة الخفاجي للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 1408/ 1988)

70)ـ التأويل اللغوي في القرآن الكريم دراسة دلالية، حسين حامد صالح،(بيروت، دار بن حزم للطباعة والنشر)

71)ـ علم البيان بين النظريات والأصول، دريزة سقال، (بيروت، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 1397/ 1977)

72)ـ دلالات التراكيب، دراسة تحليلية لعلم المعاني، محمد حسن أبو موسى،(المغرب، بنغازي، الطبعة الأولى، 1399/ 1979)

73)ـ البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق: حسن السندوبي،(القاهرة، المطبعة الرحمانية، الطبعة الثانية، 1351/1932)

74)ـ من أساليب البيان في القرآن الكريم،محمد على أبو حمدة،(عمّان، مكتبة الرسالة الحديثية، الطبعة الثانية، سنة، 1983/1403)
75)وقائع لغوية وأنظار نحوية، سالم علوي، (الجزائر، دار هومه للطباعة والنشر، بلا طبعة، ولا تاريخ)
76)ـ الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد البجاوي، أبو الفضل(القاهرة، عيسى البابلي وشركاؤه، بلا طبعة ولا تاريخ)
77)ـ الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني، والبيان، والبديع، الخطيب القزويني، شرح وتعليق: عبد المنعم خفاجي،(بيروت، دار الكتاب اللبناني، الطبعة السادسة، 1405/ 1985)
78)ـ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي،) بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة السادسة، بلا تاريخ)

كتب التراجم والتاريخ

79)ـ تاريخ دمشق، علي بن الحسن بن هبة الله" بن عساكر"،دراسة وتحقيق: عمر بن غرامة العمروي، (بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، بلا طبعة، 1415/ 1995)
80) ـ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، أحمد عبد الرزاق، (القاهرة، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة،سنة، 1419، 1999)
81)ـ عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة، محمد عزة دروزة،(بيروت، دار اليقضة العربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1384، 1964)
82)ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن قاسم مخلوف، خرج حواشيه وعلق عليه، عبد المجيد خيالي، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1424/ 2003)
83)ـ طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو،(الطبعة الخامسة، بلا تاريخ)
84)ـ طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنروي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، (المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، 1417/ 1997)
85)سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، (بيروت،مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، 1410/ 1990)

86)ـ الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، دراسة وتحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض،(بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1415/ 1995)
87)ـ الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، تحقيق: إحسان عباس، (بير وت، دار صادر، الطبعة الأولى،1968/1388)
88)ـ صفة الصفوة، جما الدين أبي الفرج بن الجوزي، (بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى، 1412/ 1992)
89)ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس،(بيروت، دار صادر ، بلا طبعة ولا تاريخ)

كتب مختلفة

90)ـ سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، التهامي نقرة، (تونس، الشركة التونسية للتوزيع، سنة 1395/ 1974)
91)ـ منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، محمد السيد يوسف،(القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1442/ 2004)
92)ـ الحوار في القرآن الكريم، قواعده، أساليبه، معطياته، محمد حسين حفل الله، (الجزائر، دار المنصوري للنشر والتوزيع، بلا طبعة، ولا تاريخ)
93)ـ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1419، 1998)
94)ـ أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها، حسن جبر، (القاهرة، دار الكتاب الحديث، الطبعة الثانية، 1999/1420)
95)ـ بدائع الفوائد، ابن القيم الدجوزية، اعتنى به محمد عبد القادر الفاضلي، (بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، 2001/1422)
96) ـ كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي،(بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبهة الأولى، 2001/1422)
97) ـ المنهاج القرآني في التشريع، عبد الستار فتح الله سعيد،(القاهرة، دار الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1992/1413)
98) دراسات في القرآن الكريم، محمد إبراهيم الحفناوي، (القاهرة، دار الحديث، بلا طبعة، ولا تاريخ)

99) ـ دراسات قرآنية، عبد السلام الشريف، (الدار الجماهرية للطباعة والنشر،الطبعة الأولى، سنة، 1399، 1990) - تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة،(بيروت، دار الفكر العربي،الطبعة الأولى، سنة، 1934)
100)ـ ـ من أسرار التنزيل، فخر الدين ابن محمد الرازي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا،(القاهرة، دار المسلم، مكتبة الكليات الأزهرية)
101)
102)ـ مع الله دراسة في الدعوة الدعاة، محمد الغزالي،(القاهرة، صر، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة، السادسة، سنة، 2003/1424)
103)ـ الفلسفة القرآنية، عباس محمود العقاد،(الجزائر، مكتبة رحاب، بلا طبعة، ولا تاريخ)
104)- الرحيق المختوم بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، صفي الدين المباركفوري، (بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1426، 1427/ 2006)

المجلات

105) ـ **ملتقى الاجتهاد**، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي السابع عشر، (الجزائر،مؤسسة العصر للمنشورات الإسلامية، 1403/ 1983)
106)ـ مجلة البحوث الفقهية المعاصرة،السنة السابعة، العدد الثامن والعشرين، (الرياض، شركة مطابع نجد التجارية،بلا طبعة، 1416/ 1996)
107)ـ مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة السابعة، العدد الثامن والأربعون،(الكويت، مجلس النشر العلمي، بلا طبعة، 1422/ 2002)